أسباب
زيادة الإيمان ونقصانه

تأليف

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البدر، عبدالرزاق بن عبدالمحسن
أسباب زيادة الإيمان ونقصانه./ عبدالرزاق بن عبدالمحسن البدر.-
المدينة المنورة، ١٤٢٧هـ
٨٠ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم
ردمك: ٠ - ٧٨٤ - ٥٢ - ٩٩٦٠
١- إيمان (الإسلام) أ- العنوان
ديوي ٢٤٠ ١٤٢٧/٢٨١٦

رقم الإيداع: ١٤٢٧/٢٨١٦
ردمك: ٠ - ٧٨٤ - ٥٢ - ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلم تسليما كثيرًا.

أما بعد:

فغير خافٍ ما للإيمان من منزلة رفيعة، ومكانة عالية؛ إذ هو أهم المهمات، وأوجب الواجبات على الإطلاق، وأعظمها وأجلّها، وكلّ خير في الدنيا والآخرة متوقِّف على وجود الإيمان وصحته وسلامته، وكم للإيمان من فوائد مغدقة، وثمار يانعة، وجنى لذيذ، وأُكُل دائم، وخير مستمرّ.

ومن هنا شمَّر المشمِّرون، وتنافس المتنافسون في العناية بالإيمان، تحقيقًا وتكميلا؛ إذ المسلم الموفَّق - ولا بدَّ - تكون عنايته بإيمانه أعظم من عنايته بكلِّ شيء، ولـمَّـا تحقَّق سلف الأمَّة وصدرها وخيرها ومقدَّموها بذلك كانت عنايتهم بإيمانهم بارزة، واهتمامهم به عظيما.

فكانوا - رضي الله عنهم ورحمهم - يتعاهدون إيمانهم، ويتفقَّدون أعمالهم، ويتواصون بينهم، والآثار عنهم في ذلك كثيرة جدًّا.

١- فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأصحابه: «هلمُّوا نزداد إيمانا، وفي لفظ: تعالوا نزداد إيمانا».

٢- وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: «اجلسوا بنا نزداد إيمانا، وكان يقول في دعائه: اللهم زدني إيمانا ويقينا وفقها».

٣- وكان معاذ بن جبل رضي الله عنه يقول: «اجلسوا بنا نؤمن ساعة».

٤ـ وكان عبد الله بن رواحة ﷺ يأخذ بيد النفر من أصحابه فيقول: « تعالوا نؤمن ساعة، تعالوا فلنذكر الله ونزداد إيمانا بطاعته لعله يذكرنا بمغفرته ».

٥ـ وكان أبو الدرداء ﷺ يقول: « من فقه العبد أن يعلم أمزداد هو أو منتقص، وإن من فقه العبد أن يعلم نزغات الشيطان أنى تأتيه ».

٦ـ وكان عمير بن حبيب الخطمي ﷺ يقول: « الإيمان يزيد وينقص، فقيل: ما زيادته ونقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله عز وجل وحمدناه وسبحناه فذلك زيادته، وإذا غفلنا وضيعنا ونسينا فذلك نقصانه ».

٧ـ وكان علقمة بن قيس النخعي رحمه الله وهو أحد كبار التابعين وأجلَّائهم يقول لأصحابه: « امشوا بنا نزدد إيماناً ».

٨ـ وسُئل عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي رحمه الله عن الإيمان؛ أيزيد؟ قال: « نعم حتى يكون كالجبال، قيل: فينقص؟ قال: نعم حتى لا يبقى منه شيء ».

٩ـ وسئل إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله عن الإيمان؛ يزيد وينقص؟ فقال: « يزيد حتى يبلغ أعلى السماوات السبع، وينقص حتى يصير إلى أسفل السافلين السبع ».

وكان يقول: « الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، إذا عملت الخير زاد، وإذا ضيَّعت نقص ».

والنُّقول عنهم في ذلك كثيرة جدًّا، وكذلك من تأمَّل سيرهم وقرأ أخبارهم علم شدَّة عنايتهم بأمر الإيمان وعظم اهتمامهم به.

فلقد علم هؤلاء الأخيار أنَّ للإيمان أسباباً كثيرة تزيده وتقويه وتنميه، وأن له أسبابا أخرى كثيرة تنقصه وتضعفه وتوهيه، فاجتهدوا في تحقيق ما يقوي الإيمان وتكميله، واشتد حذرهم من كل ما يضعف الإيمان وينقصه، فكانوا بذلك بررة أخياراً.

لذا فإنَّ في معرفة هذه الأسباب ـ أعني: أسباب زيادة الإيمان ونقصانه ـ فوائد عظيمة، ومنافع جمة غفيرة، بل إن الضرورة ماسَّة إلى معرفتها والعناية بها معرفةً واتصافاً، وذلك لأن الإيمان هو كمال العبد، وسبيل فلاحه وسعادته، وبه ترتفع درجاته في الدنيا والآخرة، وهو السبب والطريق لكل خير، عاجل وآجل، ولا يحصل ولا يقوى ولا يتم إلا بمعرفة طرقه وأسبابه.

فجدير بالعبد المسلم الناصح لنفسه الحريص على سعادتها أن يجتهد في معرفة هذه الأسباب، ويتأملها ثم يطبقها في حياته؛ ليزيد إيمانه ويقوى يقينه، وأن يبعد نفسه عن أسباب نقص الإيمان، ويحصنها من الوقوع فيها؛ ليسلم من عواقبها الوخيمة، ومغبتها الأليمة، ومن وفِّق لذلك فقد وفق للخير كله.

يقول العلامة ابن سعدي ـ رحمه الله تعالى ـ: «فالعبد المؤمن الموفق لا يزال يسعى في أمرين:

أحدهما: تحقيق الإيمان وفروعه والتحقق بها علما وعملا حالًا.

والثاني: السعي في دفع ما ينافيها وينقضها أو ينقصها من الفتن الظاهرة والباطنة، ويداوي ما قصر من الأول، وما تجرَّأ عليه من الثاني بالتوبة النصوح، وتدارك الأمر قبل فواته»[1].

ومن هنا؛ فهذا البحث الذي بين يديك ـ أخي الكريم ـ فيه بيان وتوضيح لأهم أسباب زيادة الإيمان ونقصانه، وأصله فصل من كتابي «زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه»[2]، طلب بعض الأفاضل إفراده مستقلا ليستفيد منه الجميع، فكان ذلك بحمد الله ومنِّه وتوفيقه.

والله أسأل حسن القصد والقبول والرضى.

---

(١) «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان» (ص/ ٣٨).

(٢) وهو مطبوع.

أسباب زيادة الإيمان

لقد جعل الله سبحانه لكلِّ مرغوب ومطلوب سببًا وطريقًا يوصل إليه، وإنَّ أهمَّ وأعظم المطالب وأعمها نفعًا هو الإيمان، وقد جعل الله له مواد كثيرة تجلبه وتقويه، وأسباباً عديدة تزيده وتنميه، إذا فعلها العباد قوي يقينهم وزاد إيمانهم، بيَّنها الله في كتابه وبيَّنها رسوله ﷺ في سنَّته.

ولعل أهم هذه الأسباب ما يلي:

أولاً ـ تعلُّم العلم النافع

إنَّ أهمَّ وأنفع أسباب زيادة الإيمان تعلم العلم النافع علم الشريعة المستمد من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ[1].

يقول ابن رجب معرِّفاً بهذا العلم: «فالعلم النافع هو ضبط نصوص الكتاب والسنة وفهم معانيها والتقيُّد في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في معاني القرآن والحديث وفيما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام والزهد والرقائق والمعارف، وغير ذلك والاجتهاد على تمييز صحيحه من سقيمه أولاً، ثم الاجتهاد على الوقوف على معانيه وتفهمه ثانيًا، وفي ذلك كفاية لمن عقل، وشغل لمن بالعلم النافع عُني واشتغل...»[2].

وقال ابن حجر: «والمراد بالعلم العلم الشرعي الذي يفيد ما يجب على المكلّف من أمر دينه في عبادته ومعاملاته، والعلم بالله وصفاته، وما يجب له من القيام بأمره، وتنزيهه عن النقائص، ومدار ذلك على التفسير والحديث والفقه»[3].

---

(١) فائدة: قال شيخ الإسلام: «وطلب العلم الشرعي فرض على الكفاية إلا فيما يتعين، مثل طلب كل واحد علم ما أمره الله به وما نهاه عنه، فإن هذا فرض على الأعيان». «الفتاوى» (٢٨/ ٨٠).

(٢) «فضل علم السلف على علم الخلف» (ص/ ٤٥).

(٣) «فتح الباري» (١/ ١٤١).

فمن وفِّق لهذا العلم فقد وفِّق لأعظم أسباب زيادة الإيمان، ومن تأمل نصوص الكتاب والسنة علم ذلك:

قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[2].

وقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[7].

وفي «الصحيحين» من حديث معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يُفقِّهه في الدِّين»[8].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٦٢.

(٣) سورة الإسراء، الآيتان: ١٠٧ - ١٠٩.

(٤) سورة الحج، الآية: ٥٤.

(٥) سورة سبأ، الآية: ٦.

(٦) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٧) سورة المجادلة، الآية: ١١.

(٨) أخرجه البخاري (١/ ١٦٤، ٦/ ٢١٧، ١٢/ ٢٩٣ فتح) ومسلم (٣/ ١٥٢٤).

وفي «المسند» وغيره من حديث أبي الدرداء ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «من سلك طريقًا يطلب فيه علماً سلك الله به طريقًا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًى بما يصنع، وإنَّ العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإنَّ العلماء ورثة الأنبياء، وإنَّ الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهماً، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[1].

وفي الترمذي وغيره من حديث أبي أمامة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم، إنَّ الله عزَّ وجلَّ وملائكته وأهل السموات والأرض، حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلُّون على معلِّم الناس الخير»[2].

فهذه النصوص المذكورة فيها بيان منزلة العلم ومكانته، وعظم شأنه وأهميته، وما يترتب عليه من آثار حميدة وخصال كريمة في الدنيا والآخر، وما ينتج عنه من خضوع وانقياد لشرع الله، وإذعان وامتثال لأمره، فالعالم عرف ربه، وعرف نبيه، وعرف أوامر الله وحدوده، وميز بين ما يحبه الله ويرضاه وبين ما يكرهه ويأباه، فهو يعمل بأمر الله فيما يأتي ويذر، هذا إن وفق للعمل بما علم وإلا فعلمه وبال عليه.

قال الآجريّ في مقدِّمة كتابه «أخلاق العلماء»: «إنَّ الله عز وجل وتقدست أسماؤه اختص من خلقه مَنْ أحبَّ فهداهم للإيمان، ثم اختص من سائر المؤمنين مَنْ أَحبَّ فتفضل عليهم فعلمهم الكتاب والحكمة وفقههم في الدين وعلمهم التأويل، وفضلهم على سائر المؤمنين، وذلك في كل زمان وأوان، رفعهم بالعلم وزينهم بالحلم، بهم يعرف الحلال من الحرام، والحق من الباطل، والضار من النافع، والحسن من القبيح، فضلهم

---

(١) «المسند» (٥/ ١٩٦)، ورواه أبو داود (٣/ ٣١٧)، والترمذي (٥/ ٤٩)، وابن ماجه (١/ ٨١) والدارمي (١/ ٩٨) وابن حبان (١/ ١٥٢ ـ الإحسان)، وصحَّحه الألباني. انظر «صحيح الجامع» (٥/ ٣٠٢)، وقد شرحه ابن رجب في جزء مفرد فليراجع.

(٢) رواه الترمذي (٥/ ٥٠)، وذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» (١/ ١٠١)، ونقل عن الترمذي أنه قال: «حديث حسن صحيح»، وصحّحه الألباني. انظر «صحيح الترمذي» (٢/ ٣٤٣).

عظيم وخطرهم جزيل، ورثة الأنبياء، وقرّة عين الأولياء، الحيتان في البحار لهم تستغفر، والملائكة بأجنحتها لهم تخضع، والعلماء في القيامة بعد الأنبياء تشفع، مجالسهم تفيد الحكمة، وبأعمالهم ينزجر أهل الغفلة، هم أفضل من العُبَّاد، وأعلى درجة من الزهاد، حياتهم غنيمة، وموتهم مصيبة، يذكرون الغافل، ويعلمون الجاهل، لا يتوقع لهم بائقة، ولا يخاف منهم غائلة، بحسن تأديبهم يتنازع المطيعون، وبجميل موعظتهم يرجع المقصرون، جميع الخلق إلى علمهم محتاج... إلى أن قال: فهم سراج العباد، ومنار البلاد، وقوام الأمة، وينابيع الحكمة، هم غيظ الشيطان، بهم تحيا قلوب أهل الحق، وتموت قلوب أهل الزيغ، مثلهم في الأرض كمثل النجوم يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، إذا انطمست النجوم تحيروا، وإذا أسفر عنها الظلام أبصروا»[١].

ثم ساق من نصوص الكتاب والسنة وأقوال أهل العلم ما يؤيد ما ذكره.

فالعلم له منزلة عالية، ومكانة سامقة، ومن أعظم ما يبين لنا فضله وعظم شأنه، قول الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[٢].

قيل في تفسيرها: يرفع الله المؤمن العالم على المؤمن غير العالم، ورفعة الدرجات تدل على الفضل، إذ المراد به كثرة الثواب وبها ترتفع الدرجات، ورفعتها تشمل المعنوية في الدنيا بعلو المنزلة وحسن الصيت، والحسية في الآخرة بعلو المنزلة في الجنة[٣].

وكذلك قول الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[٤]، ودلالة هذه الآية على فضل العلم ظاهرة، لأنَّ الله لم يأمر نبيه ﷺ بطلب الازدياد من شيء إلا من العلم، لما يترتب عليه من زيادة الإيمان والثبات عليه، قال تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٥].

---

(١) «أخلاق العلماء» (ص/ ١٣، ١٤).

(٢) سورة المجادلة، الآية: ١١.

(٣) «فتح الباري» لابن حجر (١/ ١٤١).

(٤) سورة طه، الآية: ١١٤.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٧.

وقال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2].

وهذه الآية الأخيرة كتب فيها ابن القيِّم رحمه الله بحثًا حافلًا بيَّن فيه دلالتها على فضل العلم من وجوه كثيرة جدًّا، تربو على مائة وخمسين وجهًا، في كتابه القيِّم «مفتاح دار السعادة»[3].

وقول النبيِّ ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين» من أعظم ما يبين فضل العلم وأهله، وأن من وفق له فقد وفق للخير كله، يدلنا على ذلك تنكير لفظة «خير» في الحديث ليعم الخير كله ويشمل القليل منه والكثير، وهذا كله من فضل الله وكرمه وعظيم إحسانه على من وفق للعلم، وعلى العكس من ذلك من حرم العلم فقد حرم الخير، بدلالة الحديث نفسه.

قال ابن القيِّم: «وهذا يدلُّ على أنَّ من لم يفقهه في دينه لم يرد به خيرًا، كما أن من أراد به خيراً فقهه في دينه، ومن فقهه في دينه فقد أراد به خيراً، إذا أريد بالفقه العلم المستلزم للعمل، وأما إن أريد به مجرد العلم فلا يدل على أن من فقه في الدين فقد أريد به خيرًا، فإنَّ الفقه حينئذ يكون شرطًا لإرادة الخير وعلى الأوَّل يكون موجبًا، والله أعلم»[4].

وقال ابن حجر: «ومفهوم الحديث أنَّ من لم يتفقَّه في الدِّين، أي: لم يتعلم قواعد الإسلام وما يتصل بها من الفروع فقد حرم الخير..لأن من لم يعرف أمور دينه لا يكون فقيهاً ولا طالب فقه فيصح أن يوصف بأنه ما أريد به الخير، وفي ذلك بيان ظاهر لفضل العلماء على سائر الناس، ولفضل التفقه في الدين على سائر العلوم»[5].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨.

(٣) انظر (ص/ ٥٢ وما بعدها).

(٤) «مفتاح دار السعادة» (ص/ ٦٥)، وانظر «الفتاوى» (٢٨/ ٨٠).

(٥) «فتح الباري» (١/ ١٦٥).

وإنما نال العلم هذه المكانة العظيمة، لأنه وسيلة لأعظم الغايات وهي عبادة الله تعالى وحده لا شريك له والقيام بتوحيده على الوجه المطلوب.

فالعلم ليس مقصودًا لذاته وإنما هو مقصود لغيره وهو العمل، فكل علم شرعي فطلب الشرع له إنما يكون حيث هو وسيلة إلى التعبُّد به لله تعالى، لا من جهة أخرى، ويدل على ذلك أمور:

أحدها: أنَّ الشرع إنما جاء بالتعبد، وهو المقصود من بعثة الأنبياء عليهم السلام، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾[1].

وقوله: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[3].

وقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[4].

وما أشبه ذلك من الآيات التي لا تكاد تحصى إلَّا بكلفة كلُّها دالَّة على أن المقصود من العلم هو التعبد لله عز وجل، وصرفُ جميع أنواع العبادات والطاعات له.

الثاني: ما جاء من الأدلة الدالَّة على أنَّ روح العلم هو العمل، وإلَّا فالعلم عارية وغير منتفع به.

فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[6].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١.

(٢) سورة هود، الآية: ١-٢.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.

(٤) سورة الزمر، الآيتان: ٢-٣.

(٥) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٦) سورة الزمر، الآية: ٩.

فهذه الأدلة وغيرها تدل على أن العلم وسيلة من الوسائل، ليس مقصوداً لنفسه من حيث النظر الشرعي، وإنما هو وسيلة إلى العمل، وكل ما ورد في فضل العلم إنما هو ثابت للعلم من جهة ما هو مكلف بالعمل به.

ومن المعلوم أنَّ أفضل العلوم هو العلم بالله عز وجل، ومع هذا لا تصح به فضيلة لصاحبه حتى يصدِّق بمقتضاه وهو الإيمان بالله[(١)].

الثالث: ما ثبت في نصوص الشرع من التهديد الشديد، والتغليظ والوعيد لمن لم يعمل بعلمه، وأن العالم يسأل عن علمه ماذا عمل به، وأن من لم يعمل بعلمه يكون علمه وبالاً عليه وحسرة وندامة. قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[(٣)].

وقال تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[(٤)].

وغيرها من النصوص، وقد جاء عن السلف في هذا آثار كثيرة عظيمة النفع، جليلة القدر تناقلها العلماء في مؤلفاتهم[(٥)].

وقال شيخ الإسلام: «... ولهذا يقال: العلم علمان: علم في القلب، وعلم على اللسان، فعلم القلب هو العلم النافع، وعلم اللسان هو حجة الله على عباده[(٦)].. فالفقيه

---

(١) انظر «الموافقات» للشاطبي (١/ ٦٠- ٦٥).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٤.

(٣) سورة الصف، الآيتان: ٢، ٣.

(٤) سورة هود، الآية: ٨٨.

(٥) انظر بعضها في رسالة الخطيب البغدادي «اقتضاء العلم العمل»، ورسالة الحافظ ابن عساكر «ذم من لا يعمل بعلمه»، وكلاهما مطبوع.

(٦) هذا من كلام الحسن البصري رحمه الله، أخرجه الدارمي (١/ ١٠٢) وغيره وذكره شيخ الإسلام في «الفتاوى» وعزاه للحسن. انظر (٧/ ٢٣).

الذي تفقه قلبه غير الخطيب الذي يخطب بلسانه، وقد يحصل للقلب من الفقه والعلم أمور عظيمة، ولا يكون صاحبه مخاطباً بذلك لغيره، وقد يخاطب غيره بأمور كثيرة من معارف القلوب وأحوالها، وهو عار عن ذلك، فارغ منه»[1].

وبما تقدَّم يعرف قدر العلم ومكانته، وعظم منافعه وعوائده، وقوة أثره على قوة الإيمان وثباته، وأنه أعظم أسباب زيادته ونمائه وقوته، وذلك لمن عمل به. بل إن الأعمال إنما تتفاوت في زيادتها ونقصها، وقبولها وردها من جهة موافقتها للعلم ومطابقتها له، كما قال ابن القيِّم رحمه الله: «والأعمال إنما تتفاوت في القبول والرد بحسب موافقتها للعلم ومخالفتها له، فالعمل الموافق للعلم هو المقبول، والمخالف له هو المردود فالعلم هو الميزان، وهو المحك»[2].

وقال: «وكل علم وعمل لا يزيد الإيمان قوة فمدخول...»[3].

وزيادة الإيمان الحاصلة من جهة العلم تكون من وجوه متعددة: من جهة خروج أهله في طلب العلم، وجلوسهم في حلق الذكر، ومذاكرة بعضهم بعضاً في مسائله، وزيادة معرفتهم بالله وشرعه، وتطبيقهم لما تعلّموه، وفيمن تعلم منهم العلم لهم فيه أجر، فهذه جوانب متعددة يزداد بها الإيمان بسبب العلم وتحصيله.

أمّا أبواب العلم الشرعيّ التي يحصل بها زيادة الإيمان فكثيرة جدًّا، أجمل بعضها فيما يلي:

الأول- قراءة القرآن الكريم وتدبره

فإنَّ هذا من أعظم أبواب العلم المؤدية إلى زيادة الإيمان وثباته وقوته، فقد أنزل الله كتابه المبين على عباده هدى ورحمة وضياء ونوراً وبشرى وذكرى للذاكرين.

قال الله تعالى: ﴿وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[1].

---

(١) «درء التعارض» (٧/ ٤٥٣، ٤٥٤).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (ص/ ٨٩).

(٣) «الفوائد» (ص/ ١٦٢).

وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾(٦).

وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾(٧).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(٨).

فهذه الآيات الكريمات فيها فضل القرآن الكريم كتاب ربِّ العالمين، وأن الله جعله مباركًا وهدى للعالمين، وجعل فيه شفاء من الأسقام سيما أسقام القلوب وأمراضها من شبهات وشهوات، وجعله بشرى ورحمة للعالمين وذكرى للذاكرين، وجعله يهدي للتي هي أقوم، وصرَّف فيه من الآيات والوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرى.

فالذي يقرأ كتاب الله ويتدبر آياته ويتأملها، يجد فيه من العلوم والمعارف ما يقوي إيمانه ويزيده وينميه، ذلك أنه يجد في خطاب القرآن ملكًا له الملك كله، وله الحمد كله، أزمة الأمور كلها بيده، ومصدرها منه، ومردها إليه، مستوياً على عرشه، لا تخفى عليه

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٢.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٥.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٢.

(٤) سورة النحل، الآية: ٨٩.

(٥) سورة صٓ، الآية ٢٩.

(٦) سورة الإسراء، الآية: ٩.

(٧) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

(٨) سورة قٓ، الآية: ٣٧.

خافية في أقطار مملكته، عالماً بما في نفوس عبيده، مطلعاً على أسرارهم وعلانيتهم، منفردًا بتدبير المملكة، يسمع ويرى، ويعطي ويمنع، ويثيب ويعاقب، ويكرم ويهين، ويخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويقدر ويقضي ويدبر، ويدعو عباده ويدلهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم، ويرغبهم فيه، ويحذرهم مما فيه هلاكهم، ويتعرف إليهم بأسمائه وصفاته، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه، فيذكرهم بنعمه عليهم، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها، ويحذرهم من نقمه، ويذكرهم بما أعد لهم من الكرامة إن أطاعوه، وما أعد لهم من العقوبة إن عصوه، ويخبرهم بصنعه في أوليائه وأعدائه، وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء.

ويثني على أوليائه بصالح أعمالهم، وأحسن أوصافهم، ويذمّ أعداءه بسيِّء أعمالهم، وقبيح صفاتهم، ويضرب الأمثال، وينوع الأدلة والبراهين، ويجيب عن شبه أعدائه أحسن الأجوبة، ويصدق الصادق، ويكذب الكاذب، ويقول الحق، ويهدي السبيل، ويدعو إلى دار السلام، ويذكر أوصافها وحسنها ونعيمها، ويحذر من دار البوار، ويذكر عذابها وقبحها وآلامها، ويذكر عباده فقرهم إليه وشدة حاجتهم إليه من كل وجه، وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين، ويذكر غناه عنهم وعن جميع الموجودات وأنه الغني بنفسه عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه بنفسه، وأنه لا ينال أحد ذرة من الخير فما فوقها إلا بفضله ورحمته، ولا ذرة من الشر فما فوقها إلَّا بعدله وحكمته.

ويشهد من خطابه عتابه لأحبابه ألطف عتاب، وأنه مع ذلك مقيل عثراتهم، وغافر زلاتهم، ومقيم أعذارهم، ومصلح فاسدهم، والدافع عنهم، والمحامي عنهم، والناصر لهم، والكفيل بمصالحهم، والمنجي لهم من كل كرب، والموفي لهم بوعده، وأنه وليهم الذي لا ولي لهم سواه، فهو مولاهم الحق، ونصيرهم على عدوهم، فنعم المولى ونعم النصير.

فلا يزال العبد يستفيد من هذا التدبر لكتاب الله، ويشهد قلبه فيه من العلوم ما يزيد في إيمانه ويقويه، وكيف لا؟ وهو يجد في القرآن ملكًا عظيمًا رحيمًا جوادًا جميلًا هذا شأنه، فكيف لا يحبه وينافس في القرب منه، وينفق أنفاسه في التودد إليه، وكيف لا يكون أحب إليه مما سواه، وكيف لا يؤثر رضاه عن رضى كل من سواه، وكيف لا يلهج بذكره،

ويصير حبه والشوق إليه والأنس به هو غذاؤه وقوته ودواؤه، بحيث إن فقد ذلك فسد وهلك، ولم ينتفع بحياته [1].

قال الآجريّ رحمه الله: «ومن تدبَّر كلامه عرف الرب عز وجل، وعرف عظيم سلطانه وقدرته، وعرف عظيم تفضله على المؤمنين، وعرف ما عليه من فرض عبادته، فألزم نفسه الواجب، فحذر مما حذره مولاه الكريم، فرغب فيما رغبه، ومن كانت هذه صفته عند تلاوته للقرآن وعند استماعه من غيره كان القرآن له شفاءً فاستغنى بلا مال، وعز بلا عشيرة، وأنس مما يستوحش منه غيره، وكان همه عند التلاوة للسورة إذا افتتحها متى أتعظ بما أتلو، ولم يكن مراده متى أختم السورة، وإنما مراده متى أعقل عن الله الخطاب، متى أزدجر، متى أعتبر، لأن تلاوة القرآن عبادة، لا تكون بغفلة، والله الموفق لذلك» [2].

ولهذا فإن الله الكريم أمر عباده وحثهم على تدبر القرآن فقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [3].

وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [4].

وأخبر سبحانه أنه إنما أنزله لتتدبر آياته، فقال: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [5].

وبيَّن سبحانه أن سبب عدم هداية من ضل عن الصراط المستقيم، هو تركه لتدبر القرآن واستكباره عن سماعه، فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [6].

---

(١) انظر «الفوائد» لابن القيِّم (ص/ ٥٨- ٦٠).

(٢) «أخلاق حملة القرآن» للآجريّ (ص/ ١٠).

(٣) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٤) سورة محمد، الآية: ٢٤.

(٥) سورة ص، الآية: ٢٩.

(٦) سورة المؤمنون، الآيتان: ٦٧- ٦٨.

وأخبر سبحانه عن القرآن أنه يزيد المؤمنين إيماناً إذا قرؤوه وتدبروا آياته، فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[1].

وأخبر عن صالح أهل الكتاب أن القرآن إذا تلي عليهم يخرون للأذقان سجداً يبكون ويزيدهم خشوعاً وإيماناً وتسليماً، فقال سبحانه: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[2].

وأخبر سبحانه أنه لو أنزل القرآن الكريم على جبل لخشع وتصدع من خشية الله عز وجل، وجعل هذا مثلاً للناس يبين لهم عظمة القرآن، فقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3].

ووصفه بأنه أحسن الحديث، وأنه ثنى فيه من الآيات وردد القول فيه ليفهم، وأن جلود الأبرار عند سماعه تقشعر خشية وخوفاً، فقال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[4].

وعاتب سبحانه المؤمنين على عدم خشوعهم عند سماع القرآن، وحذرهم من مشابهة الكفار في ذلك، فقال: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[5].

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢.

(٢) سورة الإسراء، الآيات: ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩.

(٣) سورة الحشر، الآية: ٢١.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

(٥) سورة الحديد، الآية: ١٦.

فهذه الآيات المتقدِّمة فيها أوضح دلالة على أهمية القرآن ولزوم العناية به وعلى قوة أثره على القلوب، وأنه أعظم شيء يزيد الإيمان، سيما إذا كانت القراءة بتدبُّر وتأمُّل ومحاولة لفهم معانيه.

قال ابن القيِّم رحمه الله: «وبالجملة فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضى والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه.

فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبُّر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأه بتفكر حتى مر بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة، ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبُّر وتفهم، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن...»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «واعلم أن قوة الدين وكمال الإيمان واليقين لا يحصلان إلا بكثرة قراءة القرآن واستماعه مع التدبر بنية الاهتداء به والعمل بأمره ونهيه. فالإيمان الإذعاني الصحيح يزداد ويقوى وينمي وتترتب عليه آثاره من الأعمال الصالحة وترك المعاصي والفساد بقدر تدبر القرآن، وينقص ويضعف على هذه النسبة من ترك تدبره وما آمن أكثر العرب إلا بسماعه وفهمه، ولا فتحوا الأقطار ومصروا الأمصار، واتسع عمرانهم، وعظم سلطانهم، إلا بتأثير هدايته، وما كان الجاحدون المعاندون من زعماء مكة يجاهدون النبي ويصدونه عن تبليغ دعوة ربه إلا بمنعه من قراءة القرآن على الناس، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾[2]، وما ضعف الإسلام منذ القرون الوسطى حتى زال أكثر ملكه إلَّا بهجر تدبُّر القرآن وتلاوته والعمل به»[3].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (ص/ ٢٠٤).

(٢) سورة فصلت، الآية: ٢٦.

(٣) «مختصر تفسير المنار» (٣/ ١٧٠).

فالقرآن الكريم هو من أعظم مقويات الإيمان، وأنفع دواعي زيادته، وهو يزيد إيمان العبد من وجوه متعددة.

قال ابن سعدي: «ويقويه من وجوه كثيرة، فالمؤمن بمجرد ما يتلو آيات الله، ويعرف ما ركب عليه من الأخبار الصادقة والأحكام الحسنة يحصل له من أمور الإيمان خير كثير، فكيف إذا أحسن تأمله، وفهم مقاصده و أسراره»[1].

لكن ينبغي أن يعلم أن زيادة الإيمان التي تكون بقراءة القرآن لا تكون إلا لمن اعتنى بفهم القرآن وتطبيقه والعمل به، لا أن يقرأه قراءة مجردة دون فهم أو تدبر وإلا فكم قارئ للقرآن والقرآن حجيجه وخصيمه يوم القيامة.

فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع آخرين»[2].

وثبت عنه ﷺ أنه قال: «... والقرآن حُجَّة لك أو عليك»[3].

فهو حجَّة لك ويزيد في إيمانك إن عملت به، وحجة عليك وينقص إيمانك إن فرّطت به وأهملت حدوده.

قال قتادة: «لم يجالس هذا القرآن أحدٌ إلَّا قام عنه بزيادة أو نقصان»[4].

وقال الحسن البصري مبيِّناً معنى تدبّر القرآن: «... أما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: لقد قرأت القرآن كله فما أسقطت منه حرفاً، وقد والله أسقطه كله ما يُرى له القرآن في خلق ولا عمل، حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نفس، والله ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الورعة، متى كانت القراء مثل هذا لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء»[5].

---

(١) «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان» (ص/ ٢٧).

(٢) رواه مسلم (١/ ٥٥٩).

(٣) رواه مسلم (١/ ٢٠٣).

(٤) رواه ابن المبارك في «الزهد» (ص/ ٢٧٢)، والآجري في «أخلاق حملة القرآن» (ص/ ٧٣)، والمرزوي في «قيام الليل» (ص/ ٧٧ ـ مختصره)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٣/ ١٣٣).

(٥) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٣/ ٣٦٣)، وابن المبارك في «الزهد» (ص/ ٢٧٤)، والآجري في «أخلاق حملة القرآن» (٤١)، والمرزوي في «قيام الليل» (ص/ ٧٦ ـ مختصره).

قلت: يرحم الله الحسن، وما عساه قائل لو رأى بعض قرَّاء زماننا هذا، الذين فتنوا بالألحان وإقامة الحروف وتزويقها، مع إهمال الحدود وتضييعها، بل وانصرفت أسماع الناس معهم عند سماع القرآن إلى إقامة الحروف وتلحينها، مع إهمال الإنصات والتدبر لكلام الله، وبكل حال لا اعتراض على تجويد القرآن وترتيله والتغني به وتحسين أدائه، وإنما الاعتراض على التكلف في إقامة الحروف والتنطع في ذلك، دون اهتمام أو مبالاة بإقامة الأوامر التي أنزل من أجلها القرآن، حتى إنك لا ترى في بعض هؤلاء الورع القائم بحدود الله، بل ولا ترى فيهم القيام بالقرآن لا في خلق ولا في عمل.

فتجد القارئ منهم الحافظ للقرآن المجيد في إقامة حروفه يحلق لحيته أو يطيل مئزره، بل ويهمل الصلاة إما كلية أو مع الجماعة، إلى غير ذلك من المنكرات حتى إن أحد هؤلاء والله المستعان افتتح بآيات من القرآن الكريم حفلًا غنائيًا لمرأة فاجرة، فقرأ بين يدي أغنيتها آيات من القرآن الكريم، جلَّ كلام ربِّنا أن يدنِّسه مثل هؤلاء، وحسبي أن أقول مثل ما قال الحسن رحمه الله: «متى كانت القراء مثل هذا، لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء».

وقال ابن العربي واصفًا قرَّاء زمانه بانشغالهم بإقامة حروف القرآن مع إهمال حدوده، واتخاذهم لهذا العمل صناعة مع أن القرآن إنما أنزل ليعمل به قال: «... ولكن لما صارت هذه القراءة صناعة رفرفوا عليها وناضلوا عنها، وأفنوا أعمارهم - من غير حاجة إليهم - فيها، فيموت أحدهم وقد أقام القرآن كما يقام القدح لفظاً، وكسر معانيه كسر الإناء، فلم يلتئم عليه منها معنى»[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مبيِّنا حال صاحب القرآن الذي ينال رفيع الدرجات وعالي المنازل: «فهو دائم التفكر في معانيه، والتدبر لألفاظه واستغنائه بمعاني القرآن وحكمه عن غيره من كلام الناس، وإذا سمع شيئا من كلام الناس وعلومهم عرضه على القرآن، فإن شهد له بالتزكية قبله وإلا رده، وإن لم يشهد له بقبول ولا رد

---

(١) «العواصم من القواصم» (٢/ ٤٨٦) ضمن كتاب «آراء أبي بكر بن العربي الكلامية» لعمار الطالبي، وانظر ما كتبه الذهبي عن أمثال هؤلاء القراء في كتابه «زغل العلم» (ص/ ٢٥- ٢٧)، ولولا خشية الإطالة لنقلته لأهميته.

وقفه، وهمته عاكفة على مراد ربه من كلامه، ولا يجعل همته فيما حجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن، إما بالوسوسة في خروج حروفه، وترقيقها، وتفخيمها، وإمالتها، والنطق بالمد الطويل، والقصير، والمتوسط، وغير ذلك؛ فإن هذا حائل للقلوب قاطع لها عن فهم مراد الرب من كلامه»[1].

فينبغي للمسلم قبل أن يقرأ القرآن أن يتعلم كيفية الاستفادة منه حتى يتم له الانتفاع به، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في هذا قاعدة جليلة القدر عظيمة النفع فقال: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه وألق سمعك واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه»[2].

فمن طبق هذه القاعدة وسار على هذا المنهج عند تلاوته للقرآن أو سماعه إياه ظفر بالعلم والعمل معاً، وزاد إيمانه وثبت ثبوت الجبال الشوامخ، والله المسؤول أن يوفقنا لذلك ولكل خير.

ثم إنَّ التفكر والتدبُّر في آيات الله على نوعين: «تفكر فيه ليقع على مراد الربِّ منه، وتفكر في معاني ما دعا عباده إلى التفكر فيه، فالأول تفكر في الدليل القرآني، والثاني تفكر في الدليل العياني، الأول تفكر في آياته المسموعة، والثاني تفكر في آياته المشهودة»[3]. قاله ابن القيِّم.

قلت: والكلام الذي ذكرته هنا هو عن التفكر في آيات الله المسموعة، أما التفكر في آياته المرئية المشهودة فسيأتي الكلام عليه قريبًا إن شاء الله.

الثاني ـ معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العلى

فإنَّ معرفة أسماء الله وصفاته الواردة في الكتاب والسنة، والتي تدل على كمال الله المطلق من كافة الوجوه، لمن أعظم أبواب العلم التي يحصل بها زيادة الإيمان، والاشتغال بمعرفتها وفهمها والبحث التام عنها مشتمل على فوائد كثيرة وعظيمة، منها:

---

(١) «الفتاوى» (١٦/ ٥٠).

(٢) «الفوائد» (ص/ ٥)، وانظر «الفتاوى» لابن تيمية (١٦/ ٤٨ - ٥١) و (٧/ ٢٣٦ - ٢٣٧).

(٣) «مفتاح دار السعادة» (ص/ ٢٠٤).

١ـ أن علم توحيد الأسماء والصفات أشرف العلوم وأجلّها على الإطلاق، فالاشتغال بفهمه والبحث عنه اشتغال بأعلى المطالب، وحصوله للعبد من أشرف المواهب.

٢ـ أنَّ معرفة الله تدعو إلى محبته وخشيته وخوفه ورجائه وإخلاص العمل له، وهذا عين سعادة العبد، ولا سبيل إلى معرفة الله إلا بمعرفة أسمائه وصفاته والتفقه في فهم معانيها.

٣ـ أنَّ الله خلق الخلق ليعرفوه ويعبدوه، وهذا هو الغاية المطلوبة منهم، فالاشتغال بذلك اشتغال بما خلق له العبد، وتركه وتضييعه إهمال لما خلق له، وقبيح بعبد لم تزل نعم الله عليه متواترة، وفضله عليه عظيم من كل وجه أن يكون جاهلًا بربه معرضًا عن معرفته.

٤ـ أنَّ أحد أركان الإيمان، بل أفضلها وأصلها الإيمان بالله، وليس الإيمان مجرد قوله آمنت بالله من غير معرفته بربه، بل حقيقة الإيمان أن يعرف الذي يؤمن به ويبذل جهده في معرفة أسمائه وصفاته حتى يبلغ درجة اليقين، وبحسب معرفته بربه يكون إيمانه، فكلما ازداد معرفة بربه، ازداد إيمانه، وكلما نقص نقص، وأقرب طريق يوصله إلى ذلك تدبر صفاته وأسمائه سبحانه وتعالى.

٥ـ أن العلم به تعالى أصل الأشياء كلها، حتى إن العارف به حقيقة المعرفة، يستدل بما عرف من صفاته وأفعاله على ما يفعله وعلى ما يشرعه من الأحكام، لأنه لا يفعل إلا ما هو مقتضى أسمائه وصفاته، فأفعاله دائرة بين العدل والفضل والحكمة، ولذلك لا يشرع ما يشرعه من الأحكام إلا على حسب ما اقتضاه حمده وحكمته وفضله وعدله، فأخباره كلها حق وصدق، وأوامره ونواهيه عدل وحكمة[1].

ومن هذه الفوائد أن معرفة الأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية والخضوع، فلكل صفة عبودية خاصة هي من مقتضياتها، وموجبات العلم بها،

---

(١) انظر «تفسير ابن سعدي» (١/ ٢٤-٢٦) و«خلاصة تفسيره» (ص/ ١٥).

والتحقق بمعرفتها، وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح.

وبيان ذلك أن العبد إذا علم بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع والعطاء والمنع والخلق والرزق والإحياء والإماتة فإن ذلك يثمر له عبودية التوكل عليه باطناً، ولوازم التوكل وثمراته ظاهراً.

وإذا علم بأنَّ الله سميع بصير عليم لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وأنه يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فإن هذا يثمر له حفظ اللسان والجوارح وخطرات القلب عن كل ما لا يرضى الله، وأن يجعل تعلقَّات هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه.

وإذا علم بأن الله غني كريم بر رحيم واسع الإحسان فإن هذا يوجب له قوة الرجاء، والرجاء يثمر أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه.

وإذا علم بكمال الله وجماله أوجب له هذا محبة خاصة وشوقاً عظيماً إلى لقاء الله، وهذا يثمر أنواعاً كثيرة من العبادة.

وبهذا يُعلم أن العبودية كلها راجعة إلى مقتضيات الأسماء والصفات[(١)].

فإذا عرف العبد ربه المعرفة الحقيقية المطلوبة السالمة من طرق أهل الزيغ في معرفة الله والتي تبنى على تحريف الأسماء والصفات أو تعطيلها أو تكييفها أو تشبيهها، فمن سلم من هذه المناهج الكلامية الباطلة التي هي في الحقيقة أعظم ما يحول بين العبد وبين معرفة ربه وأعظم ما ينقص الإيمان ويضعفه، وعرف ربه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى التي تعرّف بها إلى خلقه والتي وردت في الكتاب والسنة وفهمها على منهج السلف الصالح، فقد وفق لأعظم أسباب زيادة الإيمان.

وقد صحَّ عن النبيِّ ﷺ الخبر أن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها كانت سبباً في دخوله الجنة.

ففي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعة

---

(١) انظر «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (ص/ ٤٢٤، ٤٢٥) وانظر نحوه بأوسع منه في «الفوائد» له (ص/ ١٢٨- ١٣١).

وتسعين اسماً، مائة إلا واحدة، من أحصاها دخل الجنة»[١].

«وليس المراد بالإحصاء عدها فقط، لأنه قد يعدها الفاجر، وإنما المراد العمل بها»[٢].

فلا بدَّ من فهم الأسماء والصفات ومعرفه ما تدل عليه من معاني حتى يتسنَّى الاستفادة التامة بها.

قال أبو عمر الطلمنكي: «من تمام المعرفة بأسماء الله تعالى وصفاته التي يستحق بها الداعي والحافظ ما قال رسول الله ﷺ، المعرفة بالأسماء والصفات وما تتضمن من الفوائد وتدل عليه من الحقائق، ومن لم يعلم ذلك لم يكن عالماً لمعاني الأسماء ولا مستفيدًا بذكرها ما تدل عليه من المعاني»[٣].

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله لإحصائها ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وعددها.

المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولاتها.

المرتبة الثالثة: دعاء الله بها، وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة[٤].

وقال ابن سعدي مبيِّنًا معنى «أحصاها» الواردة في حديث أبي هريرة المتقدم: «أي: من حفظها وفهم معانيها واعتقدها وتعبد الله بها دخل الجنة، والجنة لا يدخلها إلا المؤمنون، فعلم أن ذلك أعظم ينبوع ومادة لحصول الإيمان وقوته وثباته، ومعرفة الأسماء الحسنى هي أصل الإيمان والإيمان يرجع إليها»[٥].

فمن عرف الله هذه المعرفة كان من أقوى الناس إيماناً وأشدهم طاعة وتعبداً لله، وأعظمهم خوفاً ومراقبة له سبحانه.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٣٥٤، ١١/ ٢١٤، ١٢/ ٣٧٧ ـ فتح)، ومسلم (٤/ ٢٠٦٣).

(٢) «فتح الباري» (١١/ ٢٢٦)، وهو من كلام الأصيلي.

(٣) «فتح الباري» (١١/ ٢٢٦).

(٤) «بدائع الفوائد» (١/ ١٦٤).

(٥) «التوضيح والبيان» (ص/ ٢٦).

(٦) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

قال ابن جرير الطبري في تفسيره لهذه الآية: «يقول تعالى ذكره: إنما يخاف الله فيتقي عقابه بطاعته العلماء بقدرته على ما يشاء من شيء وأنه يفعل ما يريد، لأن من علم ذلك أيقن بعقابه على معصيته فخافه ورهبه خشية منه أن يعاقبه»[(١)].

وقال ابن كثير: «أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر»[(٢)].

وقد جمع هذا المعنى أحد السلف في عبارة مختصرة، فقال: «من كان بالله أعرف كان له أخوف»[(٣)].

وقال ابن القيِّم رحمه الله: «وليست حاجة الأرواح قط إلى شيء أعظم منها إلى معرفة باريها وفاطرها، ومحبته وذكره والابتهاج به، وطلب الوسيلة إليه والزلفى عنده ولا سبيل إلى هذا إلَّا بمعرفة أوصافه وأسمائه، فكلما كان العبد بها أعلم كان بالله أعرف وله أطلب وإليه أقرب، وكلما كان لها أنكر كان بالله أجهل وإليه أكره ومنه أبعد، والله ينزل العبد من نفسه حيث ينزله العبد من نفسه...»[(٤)].

فمعرفة الله عز وجل تقوي جانب الخوف والمراقبة، وتعظم الرجاء في القلب، وتزيد في إيمان العبد، وتثمر أنواعًا كثيرة من العبادة، ولا سبيل إلى هذه المعرفة ولا طريق إليها إلا تدبر كتاب الله وما تعرف به سبحانه إلى عباده على ألسنة رسله من أسمائه وصفاته وأفعاله، وما نزه نفسه عنه مما لا ينبغي له ولا يليق به سبحانه وتدبر أيامه وأفعاله في أوليائه وأعدائه التي قصها على عباده وأشهدهم إياها ليستدلوا بها على أنه إلهم الحق المبين الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ويستدلوا بها على أنه على كل شيء قدير، وأنه بكل شيء عليم، وأنه شديد العقاب، وأنه غفور رحيم، وأنه العزيز الحكيم، وأنه الفعال لما

---

(١) «تفسير الطبري» (١٢/ ١٣٢).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٥٣).

(٣) «الرسالة القشيرية» لأبي القاسم القشيري (ص/ ١٤١)، والقائل هو أبو عبد الله أحمد بن عاصم الأنطاكي، انظر ترجمته في «السير» (١١/ ٤٠٩).

(٤) «الكافية الشافية» (ص/ ٣، ٤).

يريد، وأنه الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً، وأن أفعاله كلها دائرة بين الحكمة والرحمة والعدل والمصلحة لا يخرج شيء منها عن ذلك، وهذه الثمرة لا سبيل إلى تحصيلها إلا بتدبر كلامه والنظر في آثار أفعاله[1].

أمَّا من خالف هذه الجادة، وتنكب هذا الصراط، وسلك طرق أهل الزيغ في معرفة الله، فما أبعده عن معرفة ربه وخالقه، بل إنه يكون أضعف الناس معرفة بالله، وأقلهم خوفاً وخشية منه.

قال ابن القيِّم ﷺ بعد أن بين أن تفاوت الناس في معرفة الله يرجع إلى تفاوتهم في معرفة النصوص النبوية وفهمها، والعلم بفساد الشبه المخالفة لحقائقها، قال: «وتجد أضعف الناس بصيرة أهل الكلام الباطل المذموم الذي ذمه السلف، لجهلهم بالنصوص ومعانيها، وتمكن الشبه الباطلة من قلوبهم».

ثم بيَّن أنَّ العوام أحسن حالًا من هؤلاء وأقوى معرفة بربِّهم منهم فقال: «وإذا تأملت حال العامة ـ الذين ليسوا مؤمنين عند أكثرهم ـ رأيتهم أتم بصيرة منهم، وأقوى إيماناً، وأعظم تسليماً للوحي، وانقيادًا للحق»[2].

وقد كان ﷺ نبه قبل هذا على أهمية البصيرة في توحيد الأسماء والصفات وفقهها، وفهمها على نهج السلف الصالح، وعلى أهمية الحذر من شبه أهل الكلام الباطل المفسد لهذا التوحيد.

ثم ذكر كلامًا نافعًا جامعًا مؤديًا إلى هذه البصيرة، فقال: «وعقد هذا: أن يشهد قلبك الرب تبارك وتعالى مستويًا على عرشه، متكلِّما بأمره ونهيه، بصيرًا بحركات العالم علويّه وسفليِّه، وأشخاصه وذواته، سميعًا لأصواتهم، رقيبًا على ضمائرهم وأسرارهم، وأمر الممالك تحت تدبيره، نازل من عنده وصاعد إليه، وأملاكه بين يديه تنفذ أوامره في أقطار الممالك، موصوفاً بصفات الكمال، منعوتًا بنعوت الجلال، منزهاً عن العيوب والنقائص والمثال، هو كما وصف نفسه في كتابه، وفوق ما يصفه به خلقه، حي لا يموت، قيوم لا

(١) انظر «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (ص/ ٢٠٢).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ١٢٥).

ينام، عليم لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، بصير يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، سميع يسمع ضجيج الأصوات، باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، تمت كلماته صدقًا وعدلًا، وجلت صفاته أن تقاس بصفات خلقه شبهًا ومثلًا، وتعالت ذاته أن تشبه شيئاً من الذوات أصلًا، ووسعت الخليقة أفعاله عدلاً، وحكمة ورحمة وإحساناً وفضلًا، له الخلق والأمر، وله النعمة والفضل، وله الملك والحمد، وله الثناء والمجد، أول ليس قبله شيء، آخر ليس بعده شيء، ظاهر ليس فوقه شيء، باطن ليس دونه شيء، أسماؤه كلها أسماء مدح وحمد وثناء وتمجيد، ولذلك كانت حسنى، وصفاته كلها صفات كمال، ونعوته كلها نعوت جلال، وأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وعدل، كل شيء من مخلوقاته دال عليه، ومرشد لمن رآه بعين البصيرة إليه، لم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً، ولا ترك الإنسان سدى عاطلًا، بل خلق الخلق لقيام توحيده وعبادته، وأسبغ عليهم نعمه ليتوسلوا بشكرها إلى زيادة كرامته، تعرف إلى عباده بأنواع التعرفات، وصرف لهم الآيات، ونوع لهم الدلالات، ودعاهم إلى محبته من جميع الأبواب، ومد بينه وبينهم من عهده أقوى الأسباب، فأتم عليهم نعمه السابغة، وأقام عليهم حجته البالغة، أفاض عليهم النعمة، وكتب على نفسه الرحمة، وضمن الكتاب الذي كتبه أن رحمته تغلب غضبه»[1].

فمن كانت معرفته لله كذلك، وتفقَّه في هذه البصيرة، كان من أقوى الناس إيماناً، وأحسنهم إجلالًا وتعظيمًا ومراقبة لله عز وجل، وأكثرهم طاعة وتقرباً إليه، والناس في ذلك متفاوتون فمقل ومستكثر.

الثالث. تأمُّل سيرة النبيِّ الكريم ﷺ

فإنَّ من أسباب زيادة الإيمان النظر في سيرة النبي ﷺ ودراستها وتأمل ما ذكر فيها من نعوته الطيبة، وخصاله الكريمة، وشمائله الحميدة، فهو أمين الله على وحيه، وخيرته من خلقه، وسفيره بينه وبين عباده، المبعوث بالدين القويم، والمنهج المستقيم، أرسله الله

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٢٤، ١٢٥)، وانظر أيضًا «المدارج» (٣/ ٢٥٢، ٢٥٣)، و«الوابل الصيب» لابن القيم (ص/ ١٢٥- ١٢٩).

رحمة للعالمين، وإمامًا للمتقين، وحجة على الخلائق أجمعين، أرسله على حين فترة من الرسل فهدى به إلى أقوم الطرق وأوضح السبل، وافترض على العباد طاعته وتعزيره، وتوقيره ومحبته، والقيام بحقوقه، وسد دون الجنة الطرق فلن تفتح لأحد إلا من طريقه، فشرح له صدره، ورفع له ذكره، ووضع عنه وزره، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره، بل ولا سبيل لأحد جاء بعده في نيل السعادة في الدنيا والآخرة إلَّا باتباعه وطاعته والسير على نهجه.

قال ابن القيِّم رحمه الله: «ومن ها هنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضى الله البتة إلا على أيديهم، فالطيِّب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاؤوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأي ضرورة وحاجة فرضت، فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير.

وما ظنُّك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به طرفة عين، فسد قلبك وصار كالحوت إذا فارق الماء، ووضع في المقلاة، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل كهذه الحال، بل أعظم، ولكن لا يحس بهذا إلَّا قلب حي، وما لجرح بميت إيلام[(١)].

وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ فيجب على كل من نصح نفسه، وأحب نجاتها وسعادتها، أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقل، ومستكثر، ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم»[(٢)].

---

(١) عجز بيت للمتنبي وأوله: «من يهن يسهل الهوان عليه» من قصيدة يمدح بها أبا الحسين علي بن أحمد المري. انظر «ديوان المتنبي» (ص/ ١٦٤) ط دار بيروت.

(٢) «زاد المعاد» (١/ ٦٩، ٧٠).

ولهذا فإن من درس السنة وتأمل في نعوت وصفات النبي ﷺ التي جاء ذكرها في الكتاب والسنة وكتب السير، فقد استكثر لنفسه من الخير، وازداد حبه للنبي ﷺ، وأورثته هذه المحبة المتابعة له في القول والعمل، «وأصل الأصول العلم، وأنفع العلوم النظر في سيرة الرسول وأصحابه»[1].

فمن تأمّل مثلًا قول الله تعالى في وصف نبيه ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[3].

وقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ...﴾[4] الآية وغيرها من الآيات.

وتأمّل في السنّة ما جاء عن الصحابة رضي الله عنهم في نعت النبي ﷺ مثل:

حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «ما خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين، إلّا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثمًا، فإذا كان إثمًا كان أبعد الناس منه، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك محارم الله فينتقم لله بها»[5].

وحديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «خدمته ﷺ عشر سنين، فوالله ما قال لي أفٍّ قط، ولا قال لشيء فعلته لِمَ فعلت كذا، ولا لشيء لَمْ أفعله، ألا فعلت كذا»[6].

وقال رضي الله عنه: «كان ﷺ أجود الناس، وأجمل الناس، وأشجع الناس»[7].

وقال رضي الله عنه: «كان رسول ﷺ أحسن الناس خلقاً»[8].

---

(١) «صيد الخاطر» لابن الجوزي (ص/ ٦٦).

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

(٣) سورة القلم، الآية: ٤.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٥) أخرجه البخاري (٦/ ٥٦٦ ـ فتح)، ومسلم (٤/ ١٨١٣).

(٦) أخرجه البخاري (١٠/ ٤٥٦ ـ فتح)، ومسلم (٤/ ١٨٠٥).

(٧) أخرجه البخاري (٦/ ٩٥ ـ فتح) ومسلم (٤/ ١٨٠٢).

(٨) أخرجه مسلم (٣/ ١٦٩٢).

وحديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ لم يكن فاحشًا ولا متفحّشًا، وأنه كان يقول: خياركم أحسنكم أخلاقًا»[1].

وحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ أشدّ حياء من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه»[2]، وغيرها مما يطول ذكره.

فإنَّ من تأمّل ذلك انتفع به غاية الانتفاع، ثم إن هذا من أعظم ما يقوي المحبة في قلب المسلم لنبيه ﷺ، وزيادةُ المحبة له ﷺ زيادة في الإيمان، تورث المتابعة والعمل الصالح، وهذا من أعظم أبواب وسبل الهداية.

وقد ذكر ابن القيِّم رحمه الله أنَّ للهداية أسبابًا متعدِّدة وطرقًا متنوعة، وهذا من لطف الله بعباده، لتفاوت عقولهم وأذهانهم وبصائرهم، وذكر من هذه الأسباب تأمل حال وأوصاف النبي ﷺ، وأن هذا سبب لهداية بعض الناس.

قال رحمه الله: «ومنهم من يهتدي بمعرفته بحاله ﷺ وما فطر عليه من كمال الأخلاق والأوصاف والأفعال، وأن عادة الله أن لا يخزي من قامت به تلك الأوصاف والأفعال، لعلمه بالله ومعرفته به، وأنه لا يخزي من كان بهذه المثابة، كما قالت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها له ﷺ: «أبشر فوالله لن يخزيك الله أبدًا، إنّك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»[3]»[4].

وقال ابن سعدي رحمه الله: «ومن طرق موجبات الإيمان وأسبابه معرفة النبي ﷺ، ومعرفة ما هو عليه من الأخلاق العالية، والأوصاف الكاملة، فإن من عرفه حق المعرفة لم يرتب في صدقه وصدق ما جاء به من الكتاب والسنة، والدِّين الحقّ، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾[5]، أي: فمعرفته ﷺ توجب للعبد المبادرة للإيمان ممن لم يؤمن، وزيادة الإيمان ممن آمن به.

---

(١) أخرجه البخاري (١٠/ ٤٥٦ ـ فتح) ومسلم (٤/ ١٨١٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٥٦٦ ـ فتح) ومسلم (٤/ ١٨٠٩).

(٣) رواه البخاري (١/ ٢٣ ـ فتح) ومسلم (١/ ١٤١)، وهو جزء من حديث طويل.

(٤) «مفتاح دار السعادة» (ص/ ٣٤٠)، وانظره أيضًا (ص/ ٣٢٣).

(٥) سورة المؤمنون، الآية: ٦٩.

وقال تعالى حاثًّا لهم على تدبر أحوال الرسول الداعية للإيمان: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[1].

وأقسم تعالى بكمال هذا الرسول وعظمة أخلاقه، وأنه أكمل مخلوق بقوله: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2].

فهو ﷺ أكبر داع للإيمان في أوصافه الحميدة، وشمائله الجميلة، وأقواله الصادقة، وأفعاله الرشيدة، فهو الإمام الأعظم والقدوة الأكمل ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[3]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ﴾[4].

وقد ذكر الله عن أولي الألباب الذين هم خواص الخلق أنهم قالوا: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾[5]، وهو هذا الرسول الكريم ﴿يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ﴾ بقوله وخلقه، وعمله ودينه، وجميع أحواله ﴿فَـَٔامَنَّا﴾ أي: إيمانًا لا يدخله ريب... إلى أن قال: «ولهذا كان الرجل المنصف الذي ليس له إرادة إلَّا اتباع الحق، بمجرد ما يراه ويسمع كلامه يبادر إلى الإيمان به ﷺ، ولا يرتاب في رسالته، بل كثير منهم بمجرد ما يرى وجهه الكريم يعرف أنه ليس بوجه كذاب...»[6].

الرابع- تأمل محاسن الدين الإسلامي:

فإنَّ الدين الإسلاميّ كلّه محاسن، عقائده أصح العقائد وأصدقها وأنفعها، وأخلاقه أحمد الأخلاق وأجملها، وأعماله وأحكامه أحسن الأحكام وأعدلها.

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٤٦.

(٢) سورة القلم، الآيات: ١-٤.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٤) سورة الحشر، الآية: ٧.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٩٣.

(٦) «التوضيح والبيان» (ص/ ٢٩، ٣٠).

وبهذا النظر الجليل، والتأمُّل الجميل في محاسن هذا الدين، يزين الله الإيمان في قلب العبد، ويحببه إليه كما امتنَّ به على خيار خلقه بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[1]، فيكون الإيمان في القلب أعظم المحبوبات، وأجمل الأشياء، وبهذا يذوق العبد حلاوة الإيمان، ويجدها في قلبه، فيتجمل الباطن بأصول الإيمان وحقائقه، وتتجمَّل الجوارح بأعمال الإيمان[2].

قال ابن القيِّم رحمه الله: «وإذا تأملت الحكمة الباهرة في هذا الدين القويم والملَّة الحنيفية والشريعة المحمدية التي لا تنال العبارة كمالها ولا يدرك الوصف حسنها ولا تقترح عقول العقلاء ولو اجتمعت وكانت على أكمل عقل رجل منهم فوقها، وحسب العقول الكاملة الفاضلة أن أدركت حسنها وشهدت بفضلها، وأنه ما طرق العالَمَ شريعةٌ أكمل ولا أجل ولا أعظم منها، فهي نفسها الشاهد والمشهود له، والحجة والمحتج له، والدعوى والبرهان ولو لم يأت الرسول ببرهان عليها لكفى بها برهاناً وآية وشاهداً على أنها من عند الله»[3].

ولهذا فإنَّ تأمل محاسن هذا الدِّين، والنظر فيما جاء فيه من أوامر ونواه، وشرائع وأحكام، وأخلاق وآداب، لمن أعظم الدواعي والدوافع للدخول فيه لمن لم يؤمن، وللازدياد منه لمن آمن، بل إن من قوي تأمله لمحاسن هذا الدين، ورسخت قدمه في معرفته ومعرفة حسنه وكماله، وقبح ما خالفه، كان من أقوى الناس إيمانًا وأحسنهم ثباتًا عليه، وتمسُّكًا به.

ولهذا يقول ابن القيِّم رحمه الله: «والمقصود أنَّ خواص الأمة، ولبابها، لما شهدت عقولهم حسن هذا الدين وجلالته وكماله، وشهدت قبح ما خالفه ونقصه ورداءته خالط الإيمان به ومحبته بشاشة القلوب، فلو خير بين أن يلقى في النار وبين أن يختار دينًا غيره، لاختار أن يقذف في النَّار وتقطع أعضاؤه ولا يختار دينًا غيره، وهذا الضرب من الناس هم الذين استقرت أقدامهم في الإيمان، وهم أبعد الناس عن الارتداد عنه وأحقهم بالثبات عليه إلى

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ٧.

(٢) انظر «التوضيح والبيان» لابن سعدي (ص/ ٣٢، ٣٣).

(٣) «مفتاح دار السعادة» (ص/ ٣٢٤)، وانظر أيضًا (ص/ ٣٢٨ وما بعدها).

يوم لقاء الله»[1].

ويشهد لما قاله ابن القيِّم هنا، حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلَّا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[2].

فهذا الذي ذاق حلاوة الإيمان وخالطت بشاشته سويداء قلبه، وأضاء نوراً به، واطمأن بذلك أشد الاطمئنان، لا يكاد بعد ذلك يرجع إلى الكفر والضلال، واتباع الأهواء والظنون الكاذبة بل إنه يكون من أرسخ الناس إيمانًا وأشدّهم تمسُّكًا وثباتًا، وأقواهم تعلُّقًا بربّه وخالقه، لأنه دخل الإسلام عن علم وقناعة ومعرفة، فعرف حسن الإسلام وبهاءه، وجودته ونقاءه، وتميزه عن غيره من الأديان، فرضيه دينًا لنفسه، وأنس به أشد الأنس، فكيف يبغي بعد ذلك غيره بدلًا، أو يطلب عنه مصرفاً، أو يروم عنه انتقالًا أو تحويلًا.

ولهذا فإنَّ من الفوائد الجليلة المستنبطة من هذا الحديث أنه يعد دليلًا من أدلة أهل السنة والجماعة الكثيرة على زيادة الإيمان ونقصانه، وتفاضل أهله فيه. كما قال الوالد حفظه الله: «ومن فقه الحديث وما يستنبط منه... فذكر أمورًا منها: أن في الحديث دليلًا على تفاضل الناس في الإيمان، وأنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وذلك أن من وجدت فيه الخصال الثلاث وجد حلاوة الإيمان بخلاف غيره»[3].

الخامس-قراءة سيرة سلف هذه الأمَّة:

فإنَّ سلف هذه الأمّة أصحاب النبي ﷺ وتابعيهم بإحسان، أهل الصدر الأول من الإسلام، هم خير القرون، وحماة الإسلام، وهداة الأنام، وليوث الصدام، وأهل المشاهد والمواقف العظام، وهم حملة هذا الدين ونقلته لمن جاء بعدهم من العالمين، أقوى الناس

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (ص/ ٣٤٠، ٣٤١).

(٢) أخرجه البخاري (١/ ٦٠ ـ فتح)، ومسلم (١/ ٦٦).

(٣) «عشرون حديثًا من صحيح البخاري دراسة أسانيدها وشرح متونها» للوالد الكريم الشيخ عبد المحسن العباد حفظه الله ورعاه (ص/ ١٦٨).

إيمانًا وأرسخهم علمًا وأبرّهم قلوبًا وأزكاهم نفوسًا، وخص منهم أصحاب النبي ﷺ الذين شرَّفهم الله برؤية نبيه ﷺ ومتعهم بالنظر إلى طلعته، وأكرمهم بسماع صوته والأنس بحديثه، فأخذوا الدين منه غضاً طرياً، فاستحكمت به قلوبهم، واطمأنت به نفوسهم، وثبتوا عليه ثبوت الجبال.

ويكفي في بيان فضلهم أن الله خاطبهم بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1]، والمعنى: أنهم خير الأمم، وأنفع الناس للناس.

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتي القرن الذي بعثت فيه ثم الذين يلونهم...»[2].

فمن تأمّل حال هؤلاء الأخيار، وقرأ سيرهم، وعرفَ محاسنهم، وتأمل ما كانوا عليه من خلق عظيم، وتأسِّ بالرسول الكريم ﷺ، وتعهد للإيمان، وخوفٍ من الذنوب والمعاصي، وحذر من الرياء والنفاق، وإقبالٍ على الطاعة، وتنافسٍ في فعل الخير، وتبصرَ في حالهم وقوة إيمانهم، وشدة تعبدهم لله، وحرصِهم على طاعته، وإعراضهم عن الدنيا الفانية، وإقبالهِم على الآخرة الباقية، فإنه سيقف من خلال هذا التأمل والنظر على جمل من المحاسن وكثيرٍ من النعوت والخلال ما يدعوه إلى صدق التأسي بهم، ومحبة التحلي بنعوتهم، فذكرهم يُذكِّر بالله، وتأمل أحوالهم يقوي الإيمان ويجلو الفؤاد، وما أحسن ما قيل:

كرِّر عليَّ حديثهم يا حادي فحديثهم يجلي الفؤاد الصادي

وموضع التأمُّل والبحث في سير وأخبار هؤلاء الأخيار: كتب التاريخ، والسير والزهد، والرقائق، والورع، وغيرها، والاستفادة مما صح منها، فهذا التأمل والنظر يورث صاحبه حسن التشبه بهؤلاء، وكما يقول شيخ الإسلام: «ومن كان بهم أشبه كان ذلك فيه أكمل»[3]، ومن تشبه بقوم فهو منهم.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٢) مسلم (٤/ ١٩٦٤)، وأخرجاه في «الصحيحين» من حديث عمران بن حصين بلفظ: «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم .. » البخاري (٧/ ٣ ـ فتح)، ومسلم (٤/ ١٩٦٤).

(٣) «العبودية» (ص/ ٩٤).

فهذه الأمور المتقدِّمة جميعها تزيد في الإيمان وتقويه، وهي مندرجة تحت العلم الشرعي المستمد من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وما كان عليه سلف هذه الأمة.

ثم إنَّ العلوم الأخرى غير العلم الشرعي كعلم الطبّ والهندسة وعلم الفلك والحساب وعلم النبات، وغيرها من العلوم التي توسع الناس فيها حديثاً وأعطيت من العناية والاهتمام أكثر من حقها، حتى شغلت الكثير ممن اعتنى بها عن تعلم بدائيات الدين، والأمور المعلومة منه بالضرورة، فهذه العلوم أيضًا لها أثر بالغ في زيادة إيمان من اشتغل بها واعتنى بتحصيلها إن أخلص القصد، وأراد الحق، وتجرد من الهوى. وكم من رجل آمن وازداد إيمانه بسبب اشتغاله بالطب، ووقوفه على إعجاز الله ودقة صنعه في خلق الإنسان، وما ركبه فيه من عجائب الخلق ودقة الصنع ما يبهر العقول ويحيِّر الألباب.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[1].

وقال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[2].

وقال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[3].

وكذلك الاشتغال بباقي العلوم الأخرى يزيد في إيمان الإنسان بحسب تفكُّره وتأمله وتحرِّيه لنيل الحق، والأمر أوَّلًا وأخيرًا بيد الله سبحانه فهو يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

ثم إنَّ هذه العلوم لا تؤدي إلى زيادة الإيمان إلا إذا صحبها تفكر وتأمل في آيات الله الباهرة وحججه الظاهرة، فإن عدمت ذلك عدمت هذه الفائدة الجليلة والثمرة العظيمة ولم تنفع صاحبها هذا النفع العائد على إيمانه بالزيادة والقوة والثبات.

وهذا يبيِّن أهمية التفكّر والتأمّل في آيات الله ومخلوقاته، وهو السبب الثاني من أسباب زيادة الإيمان، وهو موضوع البحث التالي.

---

(١) سورة التين، الآية: ٤.

(٢) سورة التغابن، الآية: ٣.

(٣) سورة الذاريات، الآية: ٢١.

ثانيًا - التأمُّل في آيات الله الكونية

فإنَّ التأمّل فيها، والنظر في مخلوقات الله المتنوعة العجيبة، من سماء وأرض، وشمس وقمر، وكواكب ونجوم، وليل ونهار، وجبال وأشجار، وبحار وأنهار، وغير ذلك من مخلوقات الله التي لا تعد ولا تحصى، لمن أعظم دواعي الإيمان، وأنفع أسباب تقويته.

فتأمّل خلق السماء وارجع البصر فيها كرَّة بعد كرَّة كيف تراها من أعظم الآيات في علوها وارتفاعها، وسعتها وقرارها بحيث لا تصعد علوًّا كالنار ولا تهبط نازلة كالأجسام الثقيلة، ولا عمد تحتها، ولا علاقة فوقها، بل هي ممسوكة بقدرة الله، ثم تأمل استواءها واعتدالها، فلا صدع فيها ولا فطر ولا شق، ولا أمت ولا عوج.

ثم تأمّل ما وضعت عليه من هذا اللون الذي هو أحسن الألوان، وأشدها موافقة للبصر وتقوية له.

وتأمّل خلق الأرض وكيف أبدعت، تراها من أعظم آيات فاطرها وبديعها، خلقها سبحانه فراشًا ومهادًا، وذلَّلها لعباده، وجعل فيها أرزاقهم، وأقواتهم ومعايشهم، وجعل فيها السبل لينتقلوا فيها في حوائجهم، وتصرفاتهم، وأرساها بالجبال فجعلها أوتادًا تحفظها لئلا تميد بهم، ووسع أكنافها ودحاها، فمدها وبسطها وطحاها فوسَّعها من جوانبها، وجعلها كفاتًا للأحياء تضمهم على ظهرها ما داموا أحياء، وكفاتًا للأموات تضمّهم في بطنها إذا ماتوا، فظهرها وطن للأحياء وبطنها وطن للأموات.

ثم انظر إليها وهي ميتة هامدة خاشعة فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت، فارتفعت واخضرت وأنبتت من كلّ زوج بهيج، فأخرجت عجائب النبات في المنظر والمخبر، بهيج للناظرين كريم للمتناولين.

ثم تأمل كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب وكيف نصبها فأحسن نصبها، وكيف رفعها وجعلها أصلب أجزاء الأرض، لئلا تضمحل على تطاول السنين، وترادف الأمطار والرياح، بل أتقن صنعها وأحكم وضعها، وأودعها من المنافع والمعادن والعيون ما أودعها.

ثم تأمل هذا الهواء اللطيف المحبوس بين السماء والأرض يدرك بحس اللمس عند

هبوبه، يدرك جسمه ولا يرى شخصه فهو يجري بين السماء والأرض، والطير محلقة فيه سابحة بأجنحتها كما تسبح حيوانات البحر في الماء، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هيجانه كما تضطرب أمواج البحار.

ثم تأمَّل كيف ينشئ سبحانه بهذا الريح السحاب المسخر بين السماء والأرض فتثيره كسفاً، ثم يؤلف بينه ويضم بعضه إلى بعض، ثم تلقحه الريح وهي التي سماها سبحانه لواقح، ثم يسوقه على متونها إلى الأرض المحتاجة إليه، فإذا علاها واستوى عليها أهراق ماءه عليها فيرسل سبحانه عليه الريح وهو في الجو فتذروه وتفرقه لئلا يؤذي ويهدم ما ينزل عليه بجملته حتى إذا رويت وأخذت حاجتها منه أقلع عنها وفارقها فهي روايا الأرض محمولة على ظهور الرياح.

ثم تأمَّل هذه البحار المكتنفة للأقطار التي هي خلجان من البحر المحيط الأعظم بجميع الأرض حتى إنَّ المكشوف من الأرض والجبال والمدن بالنسبة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم، وبقية الأرض مغمورة بالماء، ولولا إمساك الرب تبارك وتعالى له بقدرته ومشيئته وحبسه الماء لطفح على الأرض وعلاها كلّها.

وتأمَّل الليل والنهار وهما من أعجب آيات الله كيف جعل الليل سكنًا ولباسًا يغشى العالم فتسكن فيه الحركات، وتأوي الحيوانات إلى بيوتها، والطير إلى أوكارها، وتستجم النفوس وتستريح من كدِّ السعي والتعب حتى إذا أخذت منها النفوس راحتها وسباتها وتطلعت إلى معايشها وتصرفها جاء فالق الإصباح سبحانه وتعالى بالنهار يقدم جيشه بشير الصباح، فهزم تلك الظلمة ومزقها كل ممزق وكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون، فانتشر الحيوان وتصرف في معاشه ومصالحه، وخرجت الطيور من أوكارها، فيا له من معاد ونشأة دال على قدرة الله سبحانه على المعاد الأكبر.

وتأمَّل حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتي الليل والنهار، ولولا طلوعهما لبطل أمر العالم، وكيف كان الناس يسعون في معاشهم، ويتصرفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور فـ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۝٦١ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً

لِمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾[1].

وتأمَّل خلق الحيوانات على اختلاف صفاته وأجناسه وأشكاله ومنافعه وألوانه وعجائبه المودعة فيه، فمنه الماشي على بطنه ومنه الماشي على رجليه، ومنه الماشي على أربع، ومنه ما جعل سلاحه في رجليه وهو ذو المخالب، ومنه ما جعل سلاحه المناقير كالنسر والرخم والغراب، ومنه ما جعل سلاحه الأسنان، ومنه ما جعل سلاحه القرون يدافع عن نفسه.

وتأمَّل وخذ العبرة عموماً من وضع هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها على أحسن نظام وأدله على كمال قدرة خالقه وكمال علمه، وكمال حكمته وكمال لطفه، فإنك إذا تأملت العالم وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع آلاته ومصالحه وكل ما يحتاج إليه، فالسماء سقفه المرفوع عليه، والأرض مهاده بساط وفراش ومستقر للساكن، والشمس والقمر سراجان يزهران فيه، والنجوم مصابيح له وزينة وأدلة للمتنقل في طرق هذه الدار، والجواهر والمعادن مخزونة فيه كالذخائر والحواصل المعدة المهيأة، كل شيء منها لشأنه الذي يصلح له، وضروب النبات مهيأة لمآربه، وصنوف الحيوان مصروفة في مصالحه فمنها الركوب ومنها الحلوب ومنها الغذاء ومنها اللباس والأمتعة والآلات، ومنها الحرس، وجعل الإنسان كالملك المخول في ذلك المحكم فيه، المتصرف بفعله وأمره، ففي هذا أعظم دلالة وأقوى برهان على الخالق العليم الحكيم الخبير، الذي قدر خلقه أحسن تقدير، ونظمه أحسن تنظيم.

بل وتأمل وخذ العبرة على وجه الخصوص من خلق الله لك أيها الإنسان وتأمل في مبدأ خلقك ووسطه وآخره، فانظر بعين البصيرة، إلى أول خلقك من نطفة من ماء مهين مستقذر كيف استخرجها رب الأرباب من بين الصلب والترائب منقادة لقدرته، على ضيق طرقها واختلاف مجاريها إلى أن ساقها إلى مستقرها ومجمعها، وكيف جمع سبحانه بين الذكر والأنثى، وألقى المحبة بينهما، وكيف قادهما بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع الذي هو سبب تخليق الولد وتكوينه، وكيف قدر اجتماع ذينك الماءين مع بعد

---

(١) سورة الفرقان، الآيتان: ٦١- ٦٢.

كل منهما عن صاحبه، وساقهما من أعماق العروق والأعضاء، وجمعهما في موضع واحد جعل لهما قراراً مكيناً لا يناله هواء يفسده ولا برد يجمده ولا عارض يصل إليه، ثم قلب تلك النطفة البيضاء المشربة علقة حمراء تضرب إلى سواد، ثم جعلها مضغة لحم مخالفة للعلقة في لونها وحقيقتها وشكلها، ثم جعلها عظاماً مجردة لا كسوة عليها مباينة للمضغة في شكلها وهيئتها وقدرها وملمسها ولونها، وهكذا تتدرج أطوار خلق الإنسان إلى أن يخرج بهذه الصورة التي صوره الله عليها فشق له السمع والبصر والفم والأنف وسائر المنافذ ومد اليدين والرجلين وبسطهما وقسم رؤوسهما بالأصابع، ثم قسم الأصابع بالأنامل، وركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء كل واحد منها له قدر يخصه ومنفعة تخصه[1]، فسبحان الذي خلق فسوَّى والذي قدر فهدى، القائل: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١﴾[2].

«فجميع المخلوقات من الذرة إلى العرش سبل متصلة إلى معرفته ـ تعالى ـ وحجج بالغة على أزليته، والكون جميعه ألسن ناطقة بوحدانيته، والعالم كله كتاب يقرأ حروف أشخاصه المتبصرون على قدر بصائرهم»[3].

فتأمُّل هذه الآيات وغيرها مما خلق الله في السموات والأرض وتدبرها وإمعان النظر وإجالة الفكر فيها من أعظم ما يعود على الإنسان بالنفع في تقوية إيمانه وتثبيته، لأنه يعرف من خلالها وحدانية خالقه ومليكه، وكماله سبحانه وتعالى، فيزداد حبه وتعظيمه وإجلاله له، وتزداد طاعته وانقياده وخضوعه له، وهذه من أعظم ثمرات هذا النظر.

قال ابن القيِّم رحمه الله: «وإذا تأملت ما دعا الله سبحانه في كتابه عباده إلى الفكر فيه أوقعك على العلم به سبحانه وتعالى، وبوحدانيته، وصفات كماله، ونعوت جلاله، من

---

(١) انظر «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (ص/ ٢٠٥-٢٢٦)، فجميع ما تقدَّم بدءًا من (ص/ ٢٠٦) منقول منه بشيء من التصرف، وانظر «التبيان في أقسام القرآن» (ص/ ٢٩٥ وما بعدها)، و«شفاء العليل» (٦٦ وما بعدها)، وكلاهما لابن القيم، وانظر أيضاً «العظمة» لأبي الشيخ الأصبهاني (١/ ٢٠٩ وما بعدها) إلى أواخر المجلد الأول من قوله: باب الأمر بالتفكر في آيات الله عز وجل وقدرته وملكه وسلطانه وعظمته ووحدانيته.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٢١.

(٣) انظر «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (١/ ٣٠٧)، وهو من كلام عثمان بن مرزوق القرشي.

عموم قدرته وعلمه، وكمال حكمته ورحمته، وإحسانه وبره، ولطفه وعدله، ورضاه وغضبه، وثوابه وعقابه، فبهذا تعرّف إلى عباده وندبهم إلى التفكر في آياته»[1].

وقال ابن سعدي رحمه الله: «ومن أسباب الإيمان ودواعيه، التفكر في الكون في خلق السموات والأرض وما فيهن من المخلوقات المتنوعة، والنظر في نفس الإنسان وما هو عليه من الصفات فإن ذلك داع قوي للإيمان، لما في هذه الموجودات من عظمة الخلق الدال على قدرة خالقها وعظمته، وما فيها من الحسن والانتظام والإحكام الذي يحير الألباب، الدال على سعة علم الله وشمول حكمته وما فيها من أصناف المنافع والنعم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى، الدالة على سعة رحمة الله وجوده وبره، وذلك كله يدعو إلى تعظيم مبدعها وبارئها وشكره واللهج بذكره وإخلاص الدين له، وهذا هو روح الإيمان وسره»[2].

ولهذا فإن الله الكريم سجانه ندب عباده في كتابه إلى تأمل هذه الآيات والدلالات، وإلى النظر والتفكر في مواضع كثيرة منه، وذلك لكثرة منافعها للعباد وعظم عوائدها عليهم.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾[4]، والآيات بعدها.

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾[5].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (ص/ ٢٠٤).

(٢) «التوضيح والبيان» (ص/ ٣١)، وانظر «الرياض الناضرة» له (ص/ ٢٥٨- ٢٨٠).

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.

(٤) سورة الروم، الآية:. ٢.

(٥) سورة الشورى، الآية: ٢٩.

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[1].

وغيرها من الآيات، وهي كثيرة في القرآن، يدعو فيها عباده إلى النظر في آياته ومفعولاته التي هي أعظم دليل على توحده وتفرده وعلى قدرته ومشيئته وعلمه سبحانه وتعالى، وعلى بره ولطفه وكرمه، وهذا أعظم داع للعباد إلى محبة الله وشكره وتعظيمه وطاعته وملازمة ذكره، وبهذا يتبين أن النظر في الكون والتأمل فيه من أعظم أسباب الإيمان وأنفع دواعيه.

ثالثًا- ومن أسباب زيادة الإيمان وتقويته

أن يجتهد المسلم في القيام بالأعمال الصالحة الخالصة لوجه الله تعالى وأن يكثر منها، ويداوم عليها.

فإنَّ كلَّ عمل يقوم به المسلم مما شرعه الله ويخلص نيته فيه يزيد في إيمانه، لأن الإيمان يزيد بزيادة الطاعات وكثرة العبادات.

ثم إنَّ العبودية التي شرعها الله لعباده وطلب منهم القيام بها، فرضها ونفلها منقسمة على القلب واللسان والجوارح وعلى كل منها عبودية تخصه.

فمن عبودية القلب التي تخصه: الإخلاص والمحبة والتوكل والإنابة والرجاء والخوف والخشية والرهبة والرضى والصبر وغيرها من الأعمال القلبية.

ومن عبودية اللسان التي تخصّه: قراءة القرآن، والتكبير والتسبيح والتهليل والاستغفار، وحمد الله والثناء عليه والصلاة والسلام على رسوله وغيرها من الأعمال التي لا تكون إلا باللسان.

ومن عبودية الجوارح التي تخصها: الصدقة والحج والصلاة والوضوء والخُطا إلى المسجد ونحوها من الأعمال التي تكون بالجوارح.

فهذه الأعمال القلبية والتي باللسان والتي بالجوارح كلها من الإيمان وداخلة في

---

(١) سورة الغاشية، الآيات: ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠.

مسماه، فالقيام بها والإكثار منها زيادة في الإيمان وإهمالها وإنقاصها نقص في الإيمان.

أما أعمال القلب:

فهي في الحقيقة أصل الدِّين ورأس الأمر وأهم المطالب، بل إن الأعمال الظاهرة لا تقبل إن خلت من الأعمال القلبية؛ لأن الأعمال كلها يشترط في قبولها الإخلاص بها لله عز وجل، والإخلاص عمل قلبي، ولهذا كانت الأعمال القلبية واجبة على كل أحد لا يكون تركها محموداً في حال من الأحوال، والناس في القيام بها على ثلاث درجات كما هم في أعمال البدن على ثلاث درجات: منهم الظالم لنفسه، ومنهم المقتصد، ومنهم السابق بالخيرات[(١)].

ولذا لزم كلّ مسلم أن يبدأ بتطهير قلبه وإصلاحه والعناية به، قبل أن يعتني بإصلاح ظاهره، إذ لا عبرة بصلاح الظاهر مع فساد الباطن ومتى ما أصلح المسلم قلبه بالأعمال الزاكية والإخلاص والصدق والمحبة لله تعالى ولرسوله ﷺ استقامت جوارحه وصلح ظاهره، كما في الصحيحين من حديث النعمان بن بشر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «..ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه ألا وهي القلب»[(٢)].

فهذا الحديث فيه أعظم إشارة إلى أن صلاح حركات العبد الظاهرة بحسب صلاح حركة قلبه وباطنه، فإن كان قلبه سليما ليس فيه إلا محبة الله ومحبة ما يحبه الله، وخشية الله وخشية الوقوع فيما يكرهه صلحت حركات جوارحه كلها، بخلاف ما إذا كان قلبه فاسداً قد استولى عليه حب الهوى واتباع الشهوات وتقديم حظوظ النفس، فإن من كان كذلك فسدت حركات جوارحه كلها.

ولهذا يقال: القلب ملك الأعضاء وبقية الأعضاء جنوده، وهم مع هذا جنود طائعون له منبعثون في طاعته وتنفيذ أوامره لا يخالفونه في شيء من ذلك، فإن كان الملك صالحاً كانت هذه الجنود صالحة، وإن كان فاسدًا كانت جنوده بهذه المشابهة فاسدة، ولا

---

(١) انظر «الفتاوى» (١٠/ ٦).

(٢) البخاري (١/ ١٢٦ ـ فتح)، ومسلم (٣/ ١٢٢٠).

ينفع عند الله إلَّا القلب السليم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[١]. والقلب السليم هو: السالم من الآفات والمكروهات كلها وهو القلب الذي ليس فيه سوى محبة الله وخشية ما يباعد منه[٢].

قال شيخ الإسلام: «ثم القلب هو الأصل، فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة، لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب... فإذا كان القلب صالحًا بما فيه من الإيمان علمًا وعملًا قلبيًّا، لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالإيمان المطلق»[٣].

ولهذا فإن من أعظم ما يزيد في إيمان الشخص الظاهر والباطن أن يجاهد نفسه مجاهدة تامة على إصلاح قلبه وعمارته بمحبة الله عز وجل ومحبة ما يحبه الله من الأقوال والأعمال.

قال ابن رجب: «... فلا صلاح للقلوب حتى تستقر فيها معرفة الله وعظمته ومحبته وخشيته ومهابته ورجاؤه والتوكل عليه ويمتلىء من ذلك، وهذا هو حقيقة التوحيد وهو معنى لا إله إلا الله، فلا صلاح للقلوب حتى يكون إلهها الذي تألهه وتعرفه وتحبه وتخشاه هو إله واحد لا شريك له، ولو كان في السموات والأرض إله يؤله سوى الله لفسدت بذلك السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[٤]، فعلم بذلك أنه لا صلاح للعالم العلوي والسفلي معاً حتى تكون حركات أهلها كلّها لله، وحركات الجسد تابعة لحركة القلب وإراداته، فإن كانت حركته وإرادته لله وحده فقد صلح وصلحت حركات الجسد كله، وإن كانت حركة القلب وإرادته لغير الله فسد وفسدت حركات الجسد بحسب فساد حركة القلب»[٥].

وقد ثبت عن النبيِّ ﷺ أنّه قال: «من أحبَّ لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨- ٨٩.

(٢) انظر «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ص/ ٧١).

(٣) «الفتاوى» (٧/ ١٨٧).

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

(٥) «جامع العلوم والحكم» (ص/ ٧١)، وانظر «الوابل الصيب» لابن القيِّم (ص/ ١٢).

استكمل الإيمان»[1].

«ومعنى هذا أنَّ كل حركات القلب والجوارح إذا كانت كلها لله فقد كمل إيمان العبد بذلك باطنًا وظاهرًا، ويلزم من صلاح حركات القلب صلاح حركات الجوارح، فإذا كان القلب صالحاً ليس فيه إلا إرادة الله وإرادة ما يريده لم تنبعث الجوارح إلا فيما يريده، فسارعت إلى ما فيه رضاه، وكفت عما يكرهه وعما يخشى أن يكون مما يكره وإن لم يتيقن ذلك»[2].

فمتى ما صلحت القلوب بالإيمان والصدق والإخلاص والمحبة ولم يبق فيها إرادة لغير الله، صلحت جميع الجوارح فلم تتحرك إلا لله عز وجل وبما فيه مرضاته.

والقلب لا يخلو بحال من الفكر إمَّا في واجب آخرته ومصالحها، وإما في مصالح دنياه ومعاشه، وإما في الوساوس والأماني الباطلة والمقدرات المفروضة. وجماع إصلاح القلب أن تشغله بالفكر بما فيه صلاحه وفلاحه المحقق، ففي باب العلوم والتصورات تشغله بمعرفة ما يلزمك من التوحيد وحقوقه، وفي الموت وما بعده إلى دخول الجنة والنار، وفي آفات الأعمال وطرق التحرز منها، وفي باب الإرادات والعزوم تشغله بإرادة ما ينفعك إرادته وطرح إرادة ما يضرك إرادته[3].

وإنَّ أعظم عون للعبد على ذلك هو تكثير الشواهد النافعة في القلب، لتقوى صلته بالله، ولأن الأعمال الصالحة إنما تكون بحسب قيام هذه الشواهد في القلب وكثرتها.

قال ابن القيِّم رحمه الله: «ونحن نشير بعون الله وتوفيقه إلى الشواهد إشارة يعلم بها حقيقة الأمر:

فأوَّل شواهد السائر إلى الله والدار الآخرة، أن يقوم به شاهد من الدنيا وحقارتها، وقلَّة وفائها، وكثرة جفائها، وخسَّة شركائها، وسرعة انقضائها... فإذا قام بالعبد هذا

---

(١) رواه أبو داود (٤/ ٢٢٠)، والطبراني في الكبير (رقم ٧٧٣٧)، وابن بطة في الإبانة (٢/ ٦٥٨) وغيرهم، وصححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (١/ ٦٥٧).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (ص/ ٧٢).

(٣) انظر «الفوائد» لابن القيم (ص/ ٣١٠، ٣١١).

الشاهد منها ترحل قلبه عنها، وسافر في طلب الدار الآخرة، وحينئذ يقوم بقلبه شاهد من الآخرة ودوامها، وأنها هي الحيوان حقًّا، فأهلها لا يرتحلون منها، ولا يظعنون عنها بل هي دار القرار، ومحطّ الرحال ومنتهى السير.. ثم يقوم بقلبه شاهد من النار وتوقدها واضطرامها، وبُعد قعرها، وشدَّة حرِّها وعظيم عذاب أهلها، فيشاهدهم وقد سيقوا إليها سود الوجوه زرق العيون والسلاسل والأغلال في أعناقهم فلما انتهوا إليها فتحت في وجوههم أبوابها فشاهدوا ذلك المنظر الفظيع، وقد تقطعت قلوبهم حسرة وأسفًا... فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد انخلع من الذنوب والمعاصي واتباع الشهوات، ولبس ثياب الخوف والحذر... وعلى حسب قوة هذا الشاهد يكون بعده من المعاصي والمخالفات، فيذيب هذا الشاهد من قلبه الفضلات والمواد المهلكة، وينضجها ثم يخرجها، فيجد القلب لذة العافية وسرورها.

فيقوم به بعد ذلك شاهد الجنة، وما أعد الله لأهلها فيها، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فضلاً عما وصفه الله لعباده على لسان رسوله من النعيم المفصل، الكفيل بأعلى أنواع اللذة، من المطاعم والمشارب والملابس والصور، والبهجة والسرور.

فيقوم بقلبه شاهد دار قد جعل الله النعيم المقيم بحذافيره فيها، تربتها المسك، وحصباؤها الدر، وبناؤها لبن الذهب والفضة، وقصب اللؤلؤ، وشرابها أحلى من العسل وأطيب رائحة من المسك، وأبرد من الكافور وألذ من الزنجبيل، ونساؤها لو برز وجه إحداهن في هذه الدنيا لغلب على ضوء الشمس، ولباسهم الحرير من السندس والإستبرق، وخدمهم ولدان كاللؤلؤ المنثور، وفاكهتهم دائمة، لا مقطوعة ولا ممنوعة، وفرش مرفوعة، وغذاؤهم لحم طير مما يشتهون، وشرابهم عليه خمرة لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون، وخضرتهم فاكهة مما يتخيرون، وشاهدهم حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون، فهم على الأرائك متكئون، وفي تلك الرياض يحبرون، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.

فإذا انضمَّ إلى هذا الشاهد: شاهد يوم المزيد، والنظر إلى وجه الرب جل جلاله، وسماع كلامه منه بلا واسطة... فإذا انضم هذا الشاهد إلى الشواهد التي قبله فهناك سير

القلب إلى ربه أسرع من سير الرياح في مهابها فلا يلتفت في طريقه يميناً ولا شمالاً...»[1].

فإذا قامت مثل هذه الشواهد في قلب العبد وأعمل فكره فيها، كانت أعظم عون له على تطهير قلبه وتنزيهه من الأوصاف المذمومة والإرادات السافلة، وعلى تخليته وتفريغه من التعلق بغير الله سبحانه، وكانت أعظم باعث له على العبادة والمحبة والخشية والإنابة والافتقار لله تعالى.

والمقصود أن أعظم باعث للإيمان، وأنفع مقوياته وأهم أسباب زيادته ونمائه هو إصلاح القلب بالإيمان وبالحب لله ولرسوله ولما يحبه الله ورسوله ﷺ، وتطهيره مما يخالف هذا ويناقضه، والله الموفق.

وأما أعمال اللسان: كذكر الله عز وجل وحمده والثناء عليه وقراءة كتابه والصلاة والسلام على رسول الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتسبيح والاستغفار والدعاء وغير ذلك من الأعمال التي تكون باللسان، فلا شك أن القيام بها والمداومة عليها والإكثار منها من أعظم أسباب زيادة الإيمان.

قال الشيخ ابن سعدي رحمه الله: «ومن أسباب دواعي الإيمان الإكثار من ذكر الله كل وقت، ومن الدعاء الذي هو مخ العبادة، فإن الذكر لله يغرس شجرة الإيمان في القلب، ويغذيها وينميها، وكلما ازداد العبد ذكراً لله قوي إيمانه، كما أن الإيمان يدعو إلى كثرة الذكر، فمن أحب الله أكثر من ذكره، ومحبة الله هي الإيمان بل هي روحه»[2].

وقد ذكر ابن القيِّم في كتابه «الوابل الصيِّب» أن للذكر مائة فائدة، عدد منها ثلاثاً وسبعين فائدة[3]: منها أنه يطرد الشيطان، ويرضي الرحمن، ويزيل الهم والغم، ويجلب الفرح والسرور، ويقوي القلب والبدن، وينور الوجه والقلب، ويجلب الرزق، وغير ذلك مما ذكره رحمه الله من الفوائد العظيمة التي تنال بذكر الله عزَّ وجلَّ، ولا شكَّ أنَّ أعظم فوائد ذكر الله وأنفعها أنه يزيد في الإيمان ويقوِّيه ويثبته، ولهذا فقد ورد في الكتاب والسنة

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٢٥٠- ٢٥٢).

(٢) «التوضيح والبيان» (ص/ ٣٢).

(٣) انظر «الوابل الصيب» (ص/ ٨٤ وما بعدها).

نصوص كثيرة في الأمر به والحثّ على الإكثار منه، وبيان فضله وأهميته: قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[(٣)] الآية.

وقال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[(٤)].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكّة، فمر على جبل يقال له: جُمدان، فقال: سيروا، هذا جمدان، سبق المفردون، قيل: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات»[(٥)].

وعن أبي الدرداء ﷺ أنَّ النبي ﷺ قال: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأرضاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: ذكر الله»[(٦)].

وذكر عبد الله بن بسر أنَّ رجلًا قال: يا رسول الله إنَّ شرائع الإيمان قد كثرت عليَّ،

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ١٠.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٥.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢.

(٤) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

(٥) مسلم (٤/ ٢٠٦٢).

(٦) رواه أحمد (٥/ ١٩٥)، وابن ماجه (٢/ ١٢٤٥)، والترمذي (٥/ ٤٥٩)، والطبراني في «الدعاء» (٣/ ١٦٣٦)، والحاكم (١/ ٤٩٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٢)، والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ١٥)، وذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢/ ٣٩٥) من طرق عن زياد بن أبي زياد عن أبي بحرية عن أبي الدرداء مرفوعًا، وقال الحاكم: «وهذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وقال ابن عبد البر: «وهذا يروى مسندًا من طرق جيدة». «التمهيد» (٦/ ٥٧)، وحسن إسناده البغوي والمنذري.

فأخبرني بشيء أتشبَّث به، قال: «لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله تعالى»[1].

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى: أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم..»[2] الحديث.

وغيرها من النصوص الدالة على فضل الذكر وأهميته، وفضل الاشتغال به.

فإن أعرض الإنسان عن هذا كلِّه ولم يشغل لسانه بذكر الله عز وجل اشتغل لسانه بغير ذلك من الغيبة والنميمة والسخرية والكذب والفحش، لأن العبد لا بد له أن يتكلم، فإن لم يتكلم بذكر الله تعالى وذكر أوامره تكلم بهذه الأمور.

قال ابن القيِّم: «فإنَّ اللسان لا يسكت البتة، فإمَّا لسان ذاكر، وإمَّا لسان لاغ، ولا بد من أحدهما، فهي النفس إن لم تشغلها بالحق، شغلتك بالباطل، وهو القلب، إن لم تسكنه محبة الله عز وجل، سكنته محبة المخلوقين ولا بد، وهو اللسان، إن لم تشغله بالذكر، شغلك باللغو، وهو عليك ولا بد، فاختر لنفسك إحدى الخطتين، وأنزلها في إحدى المنزلتين»[3].

وأمَّا **أعمال الجوارح**: من صلاة وصيام وحج وصدقة وجهاد وغير ذلك من الطاعات، فهي كذلك من أسباب زيادة الإيمان، فالاجتهاد في القيام بالطاعات التي افترضها الله على عباده، وبالقربات التي ندب عباده إليها، والإتيان بها على أحسن الوجوه وأكملها من أعظم أسباب قوة الإيمان وزيادته.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (١٠/ ٣٠١) و (١٣/ ٤٥٧)، والترمذي (٥/ ٤٥٨)، وابن ماجة (٢/ ١٢٤٦)، والحاكم (١/ ١٩٥)، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب من هذا الوجه»، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في تخريج الكلم الطيب (ص/ ٢٥): «صحيح الإسناد».

(٢) رواه البخاري (١٣/ ٣٨٤ ـ فتح)، ومسلم (٤/ ٢٠٦١).

(٣) «الوابل الصيب» (ص/ ١٦٦، ١٦٧)، وانظر أيضًا (ص/ ٨٧) منه.

أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[(١)].

فهذه الصفات الثمان، كلٌّ واحدة منها تثمر الإيمان وتنميه، كما أنها من صفات الإيمان وداخلة في تفسيره.

فحضور القلب في الصلاة، وكون المصلي يجاهد نفسه في استحضار ما يقوله ويفعله من القراءة والذكر والدعاء فيها، ومن القيام والقعود، والركوع والسجود من أسباب زيادة الإيمان ونموه.

وقد سمَّى الله الصلاة إيمانًا بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[(٣)]، فهي أكبر ناهٍ عن كل فحشاء ومنكر ينافي الإيمان، كما أنها تحتوي على ذكر الله الذي يغذي الإيمان وينميه، لقوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

والزكاة كذلك تنمي الإيمان وتزيده، وهي فرضها ونفلها كما قال النبي ﷺ: «والصدقة برهان»[(٤)]، أي: على إيمان صاحبها، فهي دليل الإيمان وتغذيه وتنميه.

والإعراض عن اللغو الذي هو كل كلام لا خير فيه، وكل فعل لا خير فيه، بل يقولون الخير ويفعلونه، ويتركون الشر قولا وفعلا، لا شك أنه من الإيمان ويزداد به الإيمان، ويثمر الإيمان.

ولهذا كان الصحابة ﷺ ومن بعدهم إذا وجدوا غفلة أو تشعث إيمانهم، يقول بعضهم لبعض: «اجلس بنا نؤمن ساعة».

فيذكرون الله، ويذكرون نعمه الدينية والدنيوية، فيتجدد بذلك إيمانهم.

---

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ١ - ١١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

(٤) جزء من حديث أخرجه مسلم (١/ ٢٠٣) من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ.

وكذلك العفة عن الفواحش خصوصًا فاحشة الزنا، لا ريب أن هذا من أكبر علامات الإيمان ومنمياته، فالمؤمن لخوفه مقامه بين يدي ربه ﴿نَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ إجابة لداعي الإيمان وتغذية لما معه من الإيمان.

ورعاية الأمانات والعهود وحفظها من علائم الإيمان، وفي الحديث: «لا إيمان لمن لا أمانة له»[1]، وإذا أردت أن تعرف إيمان العبد ودينه، فانظر حاله هل يرعى الأمانات كلها حالية أو قولية، أو أمانات الحقوق، وهل يرعى الحقوق والعهود والعقود التي بينه وبين الله والتي بينه وبين العباد؟ فإن كان كذلك فهو صاحب دين وإيمان، وإن لم يكن كذلك نقص من دينه وإيمانه بمقدار ما انتقص من ذلك.

وختمها بالمحافظة على الصلوات، على حدودها وحقوقها وأوقاتها، لأن المحافظة على ذلك بمنزلة الماء الذي يجري على بستان الإيمان، فيسقيه وينميه، ويؤتي أكله كل حين.

وشجرة الإيمان محتاجة إلى تعاهدها كل وقت بالسقي وهو المحافظة على أعمال اليوم والليلة من الطاعات والعبادات وإلى إزالة ما يضرها من الصخور والنوابت الغريبة الضارة، وهو العفَّة عن المحرمات قولًا وفعلًا، فمتى تمت هذه الأمور حيي هذا البستان وزها، وأخرج الثمار المتنوعة»[2].

وبهذا البيان يتضح لنا شدة أثر الأعمال الصالحة في زيادة الإيمان، وأن القيام بها والإكثار منها سبب عظيم من أسباب زيادته.

قال شيخ الإسلام: «وكمال الإيمان هو فعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهى الله عنه ورسوله، فإذا ترك بعض المأمور وعوض عنه ببعض المحظور كان في ذلك من نقص الإيمان بقدر ذلك»[3].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١١/ ١١)، وفي الإيمان (ص/ ٥)، وابن حبان في صحيحه (١/ ١٠٨ الإحسان)، والبغوي في شرح السنة (١/ ٧٥)، وقال البغوي: «هذا حديث حسن»، وصححه الألباني في تحقيقه للإيمان لابن أبي شيبة.

(٢) «التوضيح والبيان» لابن سعدي (٣٤- ٣٦) بتصرف يسير.

(٣) «الفتاوى» لابن تيمية (٢٧/ ١٧٢).

فالصلاة إيمان، والحجّ إيمان، والصدقة إيمان، والجهاد إيمان، وجميع الطاعات التي أمر الله بها عباده إيمان، فإذا فعلها العبد ازداد عنده الإيمان، وكان فعله لها سببا في زيادة إيمانه، بشرط الإخلاص والمتابعة.

قال الشيخ محمد العثيمين رحمه الله: «ولزيادة الإيمان أسباب منها...: فعل الطاعة فإن الإيمان يزداد به بحسب حسن العمل وجنسه وكثرته، فكلما كان العمل أحسن كانت زيادة الإيمان به أعظم، وحسن العمل يكون بحسب الإخلاص والمتابعة، وأما جنس العمل فإن الواجب أفضل من المسنون وبعض الطاعات أوكد وأفضل من البعض الآخر، وكلما كانت الطاعة أفضل كانت زيادة الإيمان بها أعظم، وأما كثرة العمل فإن الإيمان يزداد بها لأن العمل من الإيمان فلا جرم أن يزيد بزيادته»[1].

ثم إنَّ من أعظم الأعمال الصالحة التي تزيد في الإيمان ـ غير ما تقدم ـ: الدعوة إلى الله، ومجالسة أهل الخير، ولأهمية هذين الأمرين ولعظم نفعهما في زيادة الإيمان لزم الحديث عنهما هنا.

أمّا الدعوة إلى الله تعالى وإلى دينه، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، والدعوة إلى أصل الدين، والدعوة إلى التزام شرائعه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصح للمسلمين فإن ذلك من دواعي الإيمان وأسبابه، وبه يكمل العبد نفسه، ويكمل غيره، كما أقسم تعالى بالعصر أن جنس الإنسان لفي خسر، إلا من اتصف بصفات أربع: الإيمان والعمل الصالح اللذين بهما تكميل النفس، والتواصي بالحق الذي هو العلم النافع والعمل الصالح والدين الحق، وبالصبر على ذلك كله، وبهما يكمل غيره.

وذلك أن نفس الدعوة إلى الله والنصيحة لعباده، من أكبر مقويات الإيمان، وصاحب الدعوة لا بد أن يسعى بنصر هذه الدعوة، ويقيم الأدلة والبراهين على تحقيقها، ويأتي الأمور من أبوابها، ويتوسل إلى الأمور من طرقها، وهذه الأمور من طرق الإيمان وأبوابه.

قال شيخ الإسلام: «وسبب الإيمان وشعبه يكون تارة من العبد، وتارة من غيره، مثل من يقيض له من يدعوه إلى الإيمان، ومن يأمره بالخير، وينهاه عن الشر، ويبين له

---

(١) «فتح رب البرية» (ص/ ٦٥).

علامات الدين وحججه وبراهينه وما يعتبره وينزل به ويتعظ به، وغير ذلك من الأسباب»[١].

وأيضًا فإنَّ الجزاء من جنس العمل، فكما سعى إلى تكميل العباد ونصحهم وتوصيتهم بالحق، وصبر على ذلك لا بد أن يجازيه الله من جنس عمله، ويؤيده بنور منه وروح وقوة إيمان وقوة التوكل، فإنَّ الإيمان وقوَّة التوكل على الله يحصل به النصر على الأعداء من شياطين الإنس وشياطين الجنّ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٢].

وأيضًا فإنه متصد لنصر الحق، ومن تصدّى لشيء فلا بدَّ أن يفتح عليه فيه من الفتوحات العلمية والإيمانية بمقدار صدقه وإخلاصه[٣].

فينبغي للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر والداعي إلى صراط الله المستقيم أن يلتزم بالصدق والإخلاص في أمره ونهيه، حتى يؤتي أكله، ويثمر الإيمان الخالص فيه وفي المدعوين، وأن يلتزم في دعوته بالحكمة والرفق، والصبر على المدعوين، والعلم بما يدعوهم إليه[٤]، فإن تحقَّقت فيه هذه الأوصاف أثمرت دعوته ونفعت بإذن الله، وكانت سبباً لقوة إيمانه وقوة إيمان المدعوين.

أمَّا مجالسة أهل الخير وملازمتهم ومرافقتهم والحرص على الاستفادة منهم، فهو سبب عظيم من أسباب زيادة الإيمان، لِما يكون في تلك المجالس من التذكير بالله والتخويف منه سبحانه ومن عذابه والترغيب والترهيب وغير ذلك من الأمور التي هي من أعظم أسباب زيادة الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾[٦].

---

(١) «الفتاوى» (٧/ ٦٥٠).

(٢) سورة النحل، الآية: ٩٩.

(٣) انظر «التوضيح والبيان» لابن سعدي (٣٦، ٣٧).

(٤) انظر «الفتاوى» (٢٨/ ١٣٧).

(٥) سورة الذاريات، الآية: ٥٥.

(٦) سورة الأعلى، الآيات: ٩-١١.

فهذا يدلُّ على أنَّ أصحاب القلوب المؤمنة تستفيد من التذكير وتستفيد من مجالس الذكرى أعظم الاستفادة ويحدث لهم ذلك نشاطا وهمة، ويوجب لهم الانتفاع والارتفاع، بخلاف مجالس اللهو والغفلة فإنها من أعظم أسباب نقص الإيمان واضمحلاله.

ولهذا كان سلفنا الصالح أشدّ الناس عناية بمجالس الذكر، وأشدهم بعدًا عن مجالس اللهو والغفلة، وقد مرَّ معنا من أقوالهم ما يدل على ذلك الشيء الكثير مثل أثر عمير بن حبيب الخطمي ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما وغيرهما.

وسببٌ أخير نختم به هذه الأسباب ينبغي العناية به وعدم إغفاله، وهو أن يعود المسلم نفسه ويوطنها على مقاومة جميع ما من شأنه إنقاص الإيمان أو إضعافه أو الذهاب به، «فإنه كما أنه لا بد في الإيمان من فعل جميع الأسباب المقوية المنمية له فلا بد مع ذلك من دفع الموانع والعوائق وهي الإقلاع عن المعاصي والتوبة مما يقع منها، وحفظ الجوارح كلها عن المحرمات، ومقاومة فتن الشبهات المضعفة لإرادات الإيمان التي أصلها الرغبة في الخير ومحبته والسعي فيه، لا تتمّ إلَّا بترك إرادات ما ينافيها من رغبة النفس في الشر ومقاومة النفس الأمارة بالسوء، فمتى حُفظ العبد من الوقوع في فتن الشبهات وفتن الشهوات تم إيمانه وقوي يقينه»[1]، وبالله وحده التوفيق.

---

(١) «التوضيح والبيان» لابن سعدي (ص/ ٣٧).

أسباب نقص الإيمان

كان الحديث فيما سبق عن أسباب زيادة الإيمان، أما الحديث هنا فسيكون عن أسباب نقصه، إذ إن الإيمان كما أن له أسبابًا تزيده وتنميه، فكذلك له أسباب تنقصه وتضعفه، وكما أن المسلم مطالب بمعرفة أسباب زيادة الإيمان ليطبقها، فهو كذلك مطالب بمعرفة أسباب نقصه ليحذرها، من باب:

عرفتُ الشر لا للشرِّ ولكن لتوقّيه ومن لم يعرف الشرّ من الناس يقع فيه

وقد ثبت في «الصحيحين» عن حذيفة بن اليمان ﷺ أنه قال: «كان الصحابة يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني»[1].

وقال ابن الجوزي: «فإن في تعريف الشر تحذيرا عن الوقوع فيه»[2].

فتعلُّم أسباب نقص الإيمان، ومعرفة عوامل ضعفه، وطرق الوقاية منها أمر مطلوب لا بد من العناية به، بل إن تعلمها لا يقل أهمية عن تعلم أسباب زيادة الإيمان.

وقبل الشروع في ذكر أسباب نقص الإيمان وبيانها، أود أن أشير إلى أن عدم تعاهد أسباب زيادة الإيمان، وإهمال تقويته، وترك العناية بذلك، يعد سبباً من أسباب نقص الإيمان، فإهمال الأمور التي سبقت الإشارة إليها فيما سبق، وعدم الاعتناء بها، يضعف الإيمان وينقصه، فكما أن المحافظة عليها سبب في الزيادة، فإهمالها سبب في النقص.

قال الشيخ محمد العثيمين: «وأما نقص الإيمان فله أسباب...فذكر أمورًا منها: ترك الطاعة فإن الإيمان ينقص به، والنقص به على حسب تأكد الطاعة، فكلما كانت الطاعة أوكد كان نقص الإيمان بتركها أعظم، وربما فقد الإيمان كلّه كترك الصلاة»[3]، يدلّ على ذلك قول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[4]، فهذا النصُّ القرآني

---

(١) البخاري (٨/ ٩٣) ومسلم (٣/ ١٤٧٥).

(٢) «تلبيس إبليس» (ص/ ٤)، وانظر «الفتاوى» لابن تيمية (١٠/ ٣٠١ وما بعدها).

(٣) «فتح رب البرية» (٦٦).

(٤) سورة الشمس، الآيتان: ٩ ـ ١٠.

الكريم يدل على أهمية الطاعة والمحافظة عليها، وأن هذا من أعظم أسباب تزكية النفس، ويدل أيضًا بالمقابل على خطورة إهمال الطاعة، والوقوع في المعصية، وأن هذا من أعظم أسباب الخيبة والخسران.

قال ابن جرير الطبري رحمه الله في «تفسيره»: قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ يقول: «قد أفلح من زكى نفسه، فكثر تطهيرها من الكفر والمعاصي، وأصلحها بالصالحات من الأعمال...».

ثم روى عن السلف من الآثار ما يؤيد ذلك: فروى عن قتادة أنه قال: «من عمل خيرًا زكَّاها بطاعة الله».

وروى عنه أيضًا أنه قال: «قد أفلح من زكى نفسه بعمل صالح».

وروى عن ابن زيد أنه قال: «قد أفلح من زكَّى الله نفسه».

وروى عن مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾، قالوا: من أصلحها»[1].

ونقل ابن القيِّم عن الحسن البصري أنه قال: «قد أفلح من زكَّى نفسه فأصلحها وحملها على طاعة الله تعالى، وقد خاب من أهلكها وحملها على معصية الله تعالى».

ونقل عن ابن قتيبة أنه قال: «يريد: أفلح من زكَّى نفسه، أي: نماها وأعلاها بالطاعة والبرّ والصدق، واصطناع المعروف»[2].

أما قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، فيقول ابن جرير في تفسيرها: «يقول تعالى ذكره: وقد خاب في طلبته، فلم يدرك ما طلب والتمس لنفسه من الصلاح من دساها، يعني من دسس الله نفسه فأخملها، ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى حتى ركب المعاصي وترك طاعة الله...

ثمَّ نقل عن مجاهد أنه قال: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أي: أغواها، وعن سعيد بن جبير

---

(١) «تفسير الطبري» (١٥/ ٢١١، ٢١٢).

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ٦٥).

أنه قال: أي أضلها، وعن قتادة أنه قال: أي أثمها و أفجرها»[1].

وقال ابن القيِّم ﷺ: «أي: نقصها وأخفاها بترك عمل البر وركوب المعاصي، والفاجر أبدًا خفي المكان، زمن المروءة، غامض الشخص، ناكس الرأس، فمرتكب الفواحش قد دسَّ نفسه وقمعها»[2].

فمن زكَّى نفسه بفعل الأوامر واجتناب النواهي فقد فاز وأفلح، ومن دس نفسه بترك الأوامر وفعل النواهي فقد خسر وخاب.

أمَّا أسباب نقص الإيمان، وعوامل ضعفه فكثيرة ومتنوعة، إلَّا أنها في جملتها تنقسم إلى قسمين: أسباب داخلية، وأسباب خارجية، وتحت كل قسم منها عدة عوامل:

أما القسم الأول

فهو الأسباب الداخلية أو العوامل الذاتية التي لها تأثير في الإيمان بالنقص

وهي عدَّة عوامل:

أولاً ـ الجهل، وهو ضدّ العلم

فهذا من أعظم أسباب نقص الإيمان، كما أن العلم من أعظم أسباب زيادته، فالمسلم العالم لا يؤثر محبة وفعل ما يضره ويشقى به ويتألم به على ما فيه نفعه وفلاحه وصلاحه، أما الجاهل فإنه لفرط جهله وقلة علمه فإنه قد يؤثر مثل هذه الأشياء على ما فيه فلاحه وصلاحه، وذلك لانقلاب الموازين عنده ولضعف التصور فيه، فالعلم أصل لكل خير، والجهل أصل لكل شر.

ومحبّة الظلم والعدوان وارتكاب الفواحش واقتراف المناهي سببه الأول هو الجهل وفساد العلم، أو فساد القصد، وفساد القصد من فساد العلم، فالجهل وفساد العلم هو السبب الرئيس والأول في فساد الأعمال ونقص الإيمان.

---

(١) «تفسير الطبري» (١٥/ ٢١٢، ٢١٣).

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ٦٥)، وانظر «التبيان في أقسام القرآن» لابن القيم (ص/ ٢١).

قال ابن القيِّم: «وقد قيل: إن فساد القصد من فساد العلم، وإلا فلو علم ما في الضار من المضرة ولوازمها حقيقة العلم لما آثره، ولهذا من علم من طعام شهي لذيذ أنه مسموم فإنه لا يقدم عليه، فضعف علمه بما في الضار من وجوه المضرة، وضعف عزمه عن اجتنابه يوقعه في ارتكابه، ولهذا كان الإيمان الحقيقي هو الذي يحمل صاحبه على فعل ما ينفعه، وترك ما يضره، فإذا لم يفعل هذا، ولم يترك هذا، لم يكن إيمانه على الحقيقة، وإنما معه من الإيمان بحسب ذلك، فإن المؤمن بالنار حقيقة الإيمان حتى كأنه يراها، لا يسلك طريقها الموصلة إليها، فضلًا عن أن يسعى فيها بجهده، والمؤمن بالجنة حقيقة الإيمان لا تطاوعه نفسه أن يقعد عن طلبها، وهذا أمر يجده الإنسان في نفسه فيما يسعى فيه في الدنيا من المنافع، أو التخلص منه من المضار»[(١)].

فالنفس تهوى ما يضرها ولا ينفعها لجهلها بمضرته ولهذا فإن من يتأمل القرآن الكريم، يجد فيه أعظم إشارة إلى أن الجهل هو سبب الذنوب والمعاصي.

قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[(٣)].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ﴾[(٤)].

وقال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾[(٥)].

وغيرها من النصوص الدالة على أن ما وقع فيه الناس من شرك وكفر وفجور وارتكاب للمعاصي أعظم أسبابه الجهل بالله وبأسمائه وصفاته وبثوابه وعقابه.

ولهذا فإنَّ كلَّ من عصى الله واقترف شيئًا من الذنوب فهو جاهل، كما جاء ذلك عن

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٣٣).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣٨.

(٣) سورة النمل، الآيتان: ٥٤- ٥٥.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٦٤.

(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

السلف الصالح في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[1]، وقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2]، وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

ومعنى قوله: «بجهالة» في الآيات أي: جهالة مِنْ فاعلها بعاقبتها وإيجابها لسخط الله وعقابه، وجهل منه لنظر الله ومراقبته له، وجهل منه بما تؤول إليه من نقص الإيمان أو عدمه، فكل عاص لله فهو جاهل بهذا الاعتبار، وإن كان عالما بالتحريم، بل العلم بالتحريم شرط لكونها معصية معاقباً عليها[4].

وبنحو هذا التفسير للآية قال جماعة من السلف، وروى جملة منها الطبريّ في «تفسيره».

فروى عن أبي العالية أنه كان يحدث أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون: «كل ذنب أصابه عبد فهو بجهالة».

وعن قتادة قال: «اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فرأوا أن كل شيء عصي الله به فهو جهالة، عمدًا كان أو غيره».

وعن مجاهد قال: «كل من عصى ربه فهو جاهل، حتى ينزع عن معصيته»، وقال أيضاً: «كل من عمل بمعصية الله فذاك منه بجهل حتى يرجع عنه».

وقال السدي: «ما دام يعصي الله فهو جاهل».

وقال ابن زيد: «كل امرئ عمل شيئًا من معاصي الله فهو جاهل أبدًا حتى ينزع عنها»[5].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٧.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٤.

(٣) سورة النحل، الآية: ١١٩.

(٤) «تفسير ابن سعدي» (٢/ ٣٩).

(٥) انظر هذه الآثار وغيرها في «تفسير الطبري» (٣/ ٢٩٩، ٥/ ٢٠٩)، وانظر «تفسير البغوي» (١/ ٤٠٧)، و«الفتاوى» لابن تيمية (٧/ ٢٢)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٤٦٣).

قال شيخ الإسلام: «وسبب ذلك أنَّ العلم الحقيقي الراسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل، فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه أو ضعف القلب عن مقاومة ما يعارضه، وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فيصير جهلا بهذا الاعتبار...»[(١)].

فالجهل بالله داءٌ خطير، ومرض فتاك، يجرّ على صاحبه من الويلات والعواقب الوخيمة الشيء الكثير، فمن تمكَّن منه هذا الداء وسيطر عليه فلا تسأل عن هلكته، فهو هاوٍ في ظلمة المعاصي والذنوب، متنكب عن صراط الله المستقيم، مستسلم لدواعي الشبهات والشهوات، إلَّا أن تتداركه رحمة الله بغياث القلوب ونور الأبصار ومفتاح الخير، العلم النافع المثمر للعمل الصالح، إذ ليس هناك دواء لهذا الداء غير العلم، ولا ينفك هذا الداء عن صاحبه إلا بأن يعلمه الله ما ينفعه، ويلهمه رشده، فمن أراد الله به الخير علمه ما ينفعه، وفقهه في دينه وبصره بما فيه فلاحه وسعادته، فخرج به عن الجهل ومتى لم يرد به خيرا أبقاه على جهله، والله المسؤول أن يغيث قلوبنا بالعلم والإيمان، ويعيذنا من الجهل والعدوان.

ثانيًا ـ الغفلة والإعراض والنسيان

فإنَّ هذه الأمور الثلاثة سبب عظيم من أسباب نقص الإيمان، فمن اعترته الغفلة، وشغله النّسيان، وحصل منه الإعراض، نقص إيمانه وضعف بحسب توافر هذه الأمور الثلاثة فيه أو بعضها، وأوجبت له مرض القلب أو موته باستيلاء الشهوات والشبهات عليه.

أمّا الغفلة فقد ذمّها الله في كتابه وأخبر أنها خلق ذميم من أخلاق الكافرين والمنافقين، وحذر منها سبحانه أشد التحذير:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾[(٢)].

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص/ ٧٨).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾[3].

وقال لرسوله ﷺ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[4].

فالغفلة ـ وهي: سهو يعتري من قلّة التحفظ والتيقظ[5] ـ داء خطير، إذا اعترى الإنسان وتمكن منه لم يشتغل بطاعة الله وذكره وعبادته، بل يشتغل بالأمور الملهية المبعدة عن ذكر الله، وإن عمل أعمالاً في طاعته تأتي منه على حال سيئة ووضع غير حسن فتكون أعمالًا عارية من الخشوع والخضوع والإنابة والخشية والطمأنينة والصدق والإخلاص، فهذه بعض آثار الغفلة السيئة على الإيمان.

أمّا الإعراض فقد أخبر الله في القرآن الكريم أنّ له آثارًا سيّئةً كثيرة وعواقب ونتائج وخيمة:

منها: أنَّ الله وصف المعرض بأنه لا أحد أظلم منه، ووصفه بأنه من المجرمين كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾[6].

ومنها: إخبار الله أن المعرض يجعل الله على قلبه أكنة وأقفالا فلا يفقه ولا يهتدي أبدا كما في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ

---

(١) سورة يونس، الآيتان: ٧-٨.

(٢) سورة يونس، الآية: ٩٢.

(٣) سورة الروم، الآية: ٧.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٥.

(٥) «بصائر ذوي التمييز» للفيروزآبادي (٤/ ١٤٠).

(٦) سورة السجدة، الآية: ٢٢.

قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ [1].

ومنها: أنَّ إعراضه يسبِّب له عيشة الضنك والضيق دنيا وآخرة، كما في قوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ...﴾ [2].

ومنها: إخبار الله سبحانه أنَّ المعرض عن ذكر الله يقيض له القرناء من الشياطين فيفسدون عليه دينه، كما في قوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [3].

ومنها: إخبار الله بأنَّ المعرض يحمل يوم القيامة وزرًا، وأنه يسلك العذاب الصعد كما في قوله: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۝٩٩ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا﴾ [4].

وقوله: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [5].

وغيرها من الآيات التي يخبر فيها سبحانه وتعالى عن أخطار الإعراض وأضراره، والتي من أخطرها وأشنعها أنه مانع من الإيمان وحائل دونه لمن لم يؤمن، وموهن ومضعف لإيمان من آمن، وبحسب إعراض الإنسان يكن له نصيب من هذه النتائج والأخطار.

وأمَّا النسيان ـ وهو: ترك الإنسان ضبط ما استودع، إما لضعف قلبه، وإما عن غفلة، وإما عن قصد حتى يرتفع عن القلب ذكره [6] ـ فله أثر بالغ في الإيمان، فهو سبب من أسباب ضعفه، وبوجوده تقلّ الطاعات، وتكثر المعاصي.

والنسيان الذي جاء ذكره في القرآن الكريم على نوعين:

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٧.

(٢) سورة طه، الآية: ١٢٤.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٣٦.

(٤) سورة طه، الآية: ٩٩-١٠٠.

(٥) سورة الجن، الآية: ١٧، ومعنى صعدا، أي: شديدا شاقاً.

(٦) «بصائر ذوي التمييز» للفيروزآبادي (٥/ ٤٩).

نوع لا يعذر فيه الإنسان وهو ما كان أصله عن تعمد منه، مثل قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[1].

ونوع يعذر فيه وهو ما لم يكن سببه منه كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[2]، وقد جاء في الحديث أنَّ الله تعالى قال: «فعلتُ»[3].

والمسلم مطالب بمجاهدة نفسه وإبعادها عن الوقوع فيه، حتى لا يتضرر في دينه وإيمانه.

ثالثًا. فعل المعاصي، وارتكاب الذنوب

فإنَّ هذا لا يخفى ما به من الضرر وسوء الأثر على الإيمان، فالإيمان كما قال غير واحد من السلف: «يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية»، فكما أنَّ فعل ما أمر الله به من واجب ومندوب يزيد الإيمان، فكذلك فعل ما نهى الله عنه من محرم ومكروه ينقص الإيمان. إلَّا أنَّ الذنوب متفاوتة في درجاتها ومفاسدها وشدة ضررها تفاوتا عظيمًا، كما قال ابن القيم رحمه الله: «ولا ريب أن الكفر والفسوق والمعاصي درجات، كما أنَّ الإيمان والعمل الصالح درجات، كما قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[4]، وقال: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[5]، وقال: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾[6]، وقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ...﴾[7]، ونظائره في القرآن كثير»[8].

وقد دلّ القرآن والسنَّة على أنَّ من الذنوب كبائر وصغائر، قال الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا

---

(١) سورة الحشر، الآية: ١٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٣) رواه مسلم (١/ ١١٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٦٣.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٣٢.

(٦) سورة التوبة، الآية: ٣٧.

(٧) سورة التوبة، الآيتان: ١٢٤- ١٢٥.

(٨) «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٤٢).

كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾[2].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»[3].

وفي «الصحيحين» عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه، قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «ألا أنبِّئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثا: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور»[4].

وفيهما عنه ﷺ أنه سئل: أيُّ الذنب أكبر عند الله؟ قال: «أن تدعو لله ندا وهو خلقك، قيل ثم أيّ؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك، قيل: ثم أي؟ قال: أن تزاني بحليلة جارك»[5].

وغيرها من النصوص الدالة على تفاوت الذنوب وانقسامها إلى كبائر وصغائر.

ثم إنَّ هذه الذنوب تنقسم من جهة أخرى إلى أربعة أقسام:

ملكية، وشيطانية، وسبعية، وبهيمية، ولا تخرج عن ذلك.

فالذنوب الملكية:

أن يتعاطى ما لا يصلح له من صفات الربوبية كالعظمة والكبرياء والجبروت والقهر والعلو واستعباد الخلق ونحو ذلك، وهذا القسم أعظم أنواع الذنوب.

وأما الشيطانية:

فالتشبه بالشيطان في الحسد والبغي والغش والغلّ والخداع والمكر والأمر بمعاصي

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣١.

(٢) سورة النجم، الآية: ٣٢.

(٣) «صحيح مسلم» (١/ ٢٠٩).

(٤) البخاري (١٠/ ٤٠٥ ـ فتح)، ومسلم (١/ ٩١).

(٥) البخاري (١٢/ ١٨٧ ـ فتح)، ومسلم (١/ ٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

الله وتحسينها، والنهي عن طاعته وتهجينها، والابتداع في دينه، والدعوة إلى البدع والضلال.

وهذا النوع يلي النوع الأول في المفسدة، وإن كانت مفسدته دونه.

وأما السبعية:

فذنوب العدوان والغضب وسفك الدماء والتوثب على الضعفاء والعاجزين، ويتولد منها أنواع أذى النوع الإنساني، والجرأة على الظلم والعدوان.

وأما الذنوب البهيمية:

فمثل الشره والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج، ومنها يتولد الزنى والسرقة وأكل أموال اليتامى، والبخل والشح والجبن والهلع والجزع وغير ذلك.

وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق لعجزهم عن الذنوب السبعية والملكية، ومنه يدخلون إلى سائر الأقسام، فهو يجرهم إليها بالزمام، فيدخلون منه إلى الذنوب السبعية، ثم إلى الشيطانية، ثم إلى منازعة الربوبية والشرك في الوحدانية[1].

وعلى كل فهذا وغيره يدلنا على أن الذنوب متفاوتة في تأثيرها على الإيمان وفي إنقاصها منه وإضعافها له.

وهذا التفاوت فيها وفي تأثيرها على الإيمان يعود لاعتبارات متعددة: منها: جنس الذنب، وقدره، وشدة مفسدته، ومكانه، وزمانه، وبحسب الفاعل له، ولغير ذلك من الاعتبارات.

قال ابن القيم رحمه الله: «وبالجملة فمراتب الفاحشة متفاوتة بحسب مفاسدها فالمتخذ خدنا من النساء، والمتخذة خدنا من الرجال أقل شراً من المسافح والمسافحة مع كل أحد، والمستخفي بما يرتكبه أقل إثما من المجاهر المستعلن، والكاتم له أقل إثما من المخبر المحدث للناس به، فهذا بعيد من عافية الله تعالى وعفوه... وكذلك الزنى بالمرأة التي لا زوج لها أيسر إثمًا من الزنى بذات الزوج، لما فيه من ظلم الزوج والعدوان عليه، وإفساد فراشه عليه، وقد يكون إثم هذا أعظم من إثم مجرد الزنى، أو دونه، والزنى بحليلة الجار

---

(١) انظر «الجواب الكافي» لابن القيم (ص/١٤٧)، و«الفتاوى» (١٣/ ٨٣).

أعظم من الزنى ببعيدة الدار لما اقترن بذلك من أذى الجار، وعدم حفظ وصية الله تعالى ورسوله به، وكذلك الزنى بامرأة الغازي في سبيل الله أعظم إثمًا عند الله من الزنى بغيرها... وكما تختلف درجاته بحسب المزني بها، فكذلك تتفاوت درجاته بحسب الزمان والمكان والأحوال، وبحسب الفاعل.

فالزنى في رمضان ليلًا أو نهارًا أعظم إثمًا منه في غيره، وكذلك في البقاع الشريفة المفضلة هو أعظم إثماً منه فيما سواها.

وأمَّا تفاوته بحسب الفاعل فالزنى من الحر أقبح منه من العبد، ولهذا كان حده على النصف من حده، ومن المحصن أقبح منه من البكر، ومن الشيخ أقبح منه من الشاب،.. ومن العالم أقبح منه من الجاهل لعلمه بقبحه وما يترتب عليه، وإقدامه على بصيرة، ومن القادر على الاستغناء عنه أقبح من الفقير العاجز. بل قد يقترن بالأيسر إثماً ما يجعله أعظم إثماً مما هو فوقه، كأن يقترن بالفاحشة من العشق الذي يوجب اشتغال القلب بالمعشوق وتأليهه له وتعظيمه والخضوع له، والذل له، وتقديم طاعته، وما يأمر به على طاعة الله تعالى ورسوله وأمره فيقترن بمحبة خدنه وتعظيمه وموالاة من يواليه، ومعاداة من يعاديه، ومحبة ما يحبه، وكراهة ما يكرهه ما قد يكون أعظم ضررا على صاحبه من مجرد ركوب الفاحشة»[(١)].

وقال الشيخ محمد العثيمين: «وأما نقص الإيمان فله أسباب...:

٣ـ فعل المعصية فينقص الإيمان بحسب جنسها وقدرها والتهاون بها وقوة الداعي إليها أو ضعفه.

فأما جنسها وقدرها: فإنّ نقص الإيمان بالكبائر أعظم من نقصه بالصغائر، ونقص الإيمان بقتل النفس المحرمة أعظم من نقصه بأخذ مال محترم، ونقصه بمعصيتين أعظم من نقصه بمعصية واحدة، وهكذا.

وأمَّا التهاون بها: فإنَّ المعصية إذا صدرت من قلب متهاون بمن عصاه ضعيف الخوف منه كان نقص الإيمان بها أعظم من نقصه إذا صدرت من قلب معظم لله تعالى

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٤٤،١٤٣) باختصار، وانظر «الجامع لشعب الإيمان» للبيهقي (٢/ ٧٨ وما بعدها).

شديد الخوف منه، لكن فرطت منه المعصية.

وأمّا قوة الداعي إليها: فإن المعصية إذا صدرت ممن ضعفت منه دواعيها كان نقص الإيمان بها أعظم من نقصه إذا صدرت ممن قويت منه دواعيها، ولذلك كان استكبار الفقير، وزنى الشيخ أعظم إثمًا من استكبار الغني وزنى الشاب كما في الحديث: «ثلاثة لا يكلِّمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم»[1]، وذكر منهم: «الأشيمط الزاني، والعائل المستكبر»؛ لقلة دواعي تلك المعصية فيهما»[2].

ومما تقدم يتلخص أنَّ الذنوب تنقص الإيمان، وأنها تتفاوت في إنقاصها له بحسب اعتبارات متعددة، منها:

١ـ جنس الذنب.

٢ـ شدة مفسدته.

٣ـ قدره.

٤ـ زمانه ومكانه.

٥ـ التهاون به.

٦ـ وبحسب الفاعل له.

على ما سبق بيانه وتفصيله، وبالله التوفيق.

ومما يقي المرء من الذنوب، ويساعده على البعد عنها وعدم الوقوع فيها، معرفة أخطارها، وما يتولد منها، وسوء عواقبها، وشدة أضرارها.

وقد ذكر في ذلك ابن القيِّم رحمه الله كلامًا وجيزًا إلَّا أنه واف بالمقصود فقال: «قلَّة التوفيق، وفساد الرأي، وخفاء الحق، وفساد القلب، وخمول الذكر، وإضاعة الوقت،

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢/ ٣٥١)، والبيهقي في «الشعب» (٤/ ٢٢٠).

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٧٨): «رجاله رجال الصحيح»، وأورده الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب في «كتاب التوحيد» باب ما جاء في كثرة الحلف وقال: «رواه الطبراني بسند صحيح»، وصححه الألباني، انظر «صحيح الجامع» (٣/ ٧٤).

(٢) «فتح رب البرية» (ص/ ٦٥).

ونفرة الخلق، والوحشة بين العبد وبين ربه، ومنع إجابة الدعاء، وقسوة القلب، ومحق البركة في الرزق والعمر، وحرمان العلم، ولباس الذل، وإهانة العدو، وضيق الصدر، والابتلاء بقرناء السوء الذين يفسدون القلب ويضيعون الوقت، وطول الهم والغم، وضنك المعيشة، وكسف البال... تتولد من المعصية والغفلة عن ذكر الله كما يتولّد الزرع عن الماء، والإحراق عن النار، وأضداد هذه تتولد عن الطاعة»[1].

رابعًا ـ النفس الأمَّارة بالسُّوء

وهي نفس مذمومة توجد في الإنسان، تأمره بكل سوء، وتدعوه إلى المهالك، وتهديه إلى كل قبيح، هذا طبعها، وتلك سجيتها، إلا ما وفقها الله وثبتها وأعانها، فما تخلص أحد من شر نفسه إلا بتوفيق الله، كما قال تعالى حاكيا عن امرأة العزيز: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[3]، وقال تعالى لأكرم خلقه عليه وأحبهم إليه: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾[4]، وكان النبي ﷺ يعلمهم خطبة الحاجة: «الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له»[5]، فالشر كامن في النفس وهو يوجب سيئات الأعمال، فإن خلَّى الله بين العبد وبين نفسه هلك بين شرها وما تقتضيه من سيئات الأعمال، وإن وفقه وأعانه نجاه من ذلك كله[6].

وقد جعل الله سبحانه للإنسان في مقابلة هذه النفس نفساً مطمئنة، فإذا أمرته النفس

---

(١) «الفوائد» (ص/ ٦٧)، وانظر «الجواب الكافي» لابن القيم (ص/ ٤٦ وما بعدها).

(٢) سورة يوسف، الآية: ٣٣.

(٣) سورة النور، الآية: ٢١.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٧٤.

(٥) أخرج هذه الخطبة أبو داود (٢/ ٢٣٨)، والنسائي (٣/ ١٠٥)، وغيرهما، وراجع رسالة الألباني «خطبة الحاجة»، فقد جمع فيها طرق وألفاظ هذه الخطبة.

(٦) انظر «الروح» لابن القيم (ص/ ٢٢٦).

الأمارة بالسوء نهته عنه النفس المطمئنة، فهو يطيع هذه مرة، وهذه مرة، وهو للغالب عليه منهما[1].

قال ابن القيم رحمه الله: «وقد ركَّب الله سبحانه في الإنسان نفسين: نفسًا أمَّارة، ونفسًا مطمئنَّة، وهما متعاديتان، فكل ما خف على هذه ثقل على هذه، وكل ما التذَّت به هذه تألمت به الأخرى، فليس على النفس الأمارة أشق من العمل لله، وإيثار رضاه على هواها، وليس لها أنفع منه، وليس على النفس المطمئنة أشق من العمل لغير الله وما جاء به داعي الهوى، وليس عليها شيء أضر منه.. والحروب مستمرة لا تضع أوزارها إلا أن يستوفى أجلها من الدنيا»[2].

فلا أضر على إيمان الشخص ودينه من نفسه الأمارة بالسوء التي هذا شأنها، وهذا وصفها، فهي سبب رئيس، وعضو فعال في إضعاف الإيمان وزعزعته وتوهينه.

ومن هنا لزم من أراد الحفاظ على إيمانه من النقص والضعف، أن يعنى بمحاسبة هذه النفس ومعاتبتها، وأن يكثر من لومها، حتى يسلم من مغبتها وعواقبها الوخيمة المردية.

أما محاسبة النفس فنوعان:

نوع قبل العمل، ونوع بعده.

فأما النوع الأول:

فهو أن يقف عند أوّل همه وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتى يتبيَّن له رجحانه على تركه.

وأما النوع الثاني:

محاسبة النفس بعد العمل فهو ثلاثة أنواع:

أحدها: محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله تعالى، فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي.

الثاني: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيرا له من فعله.

الثالث: أن يحاسب نفسه على أمر مباح أو معتاد لم فعله؟ وهل أراد به الله والدار

---

(١) انظر «الوابل الصيب» لابن القيم (ص/ ٢٧).

(٢) «الجواب الكافي» لابن القيم (ص/ ١٨٤، ١٨٥).

الآخرة؟ فيكون رابحا، أو أراد به الدنيا وعاجلها؟ فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به.

وأضرّ ما على العبد الإهمال، وترك المحاسبة، والاسترسال، وتسهيل الأمور وتمشيتها، فإن هذا يؤول به إلى الهلاك، وهذه حال أهل الغرور، يغمض عينيه عن العواقب، ويمشي الحال، ويتكل على العفو، فيهمل محاسبة نفسه والنظر في العاقبة، وإذا فعل ذلك سهل عليه مواقعة الذنوب، وأنس بها، وعسر عليه فطامها.

وجماع ذلك: أن يحاسب نفسه أوّلًا على الفرائض، فإن تذكر فيها نقصا تداركه، إما بقضاء أو إصلاح، ثم يحاسبها على المناهي، فإن عرف أنه ارتكب منها شيئا تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية، ثم يحاسب نفسه على الغفلة، فإن كان قد غفل عما خلق له تداركه بالذكر والإقبال على الله، ثم يحاسبها بما تكلم به، أو مشت إليه رجلاه، أو بطشت يداه، أو سمعته أذناه: ماذا أردت بهذا؟ ولمن فعلته؟ وعلى أيِّ وجه فعلته؟ ويعلم أنه لا بد أن ينشر لكل حركة وكلمة منه ديوانان: ديوان لمن فعلته؟ وكيف فعلته؟ فالأول سؤال عن الإخلاص، والثاني سؤال عن المتابعة.

فإذا كان العبد مسؤولًا ومحاسبًا على كلّ شيء، على سمعه وبصره وقلبه، فهو حقيق أن يحاسب نفسه قبل أن يناقش الحساب، وقد دلّ على وجوب محاسبة النفس قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾[1].

والمقصود أنَّ صلاح القلب بمحاسبة النفس، وفساده بإهمالها والاسترسال معها، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله[2].

قال ابن القيِّم رحمه الله: «فالنفس داعية إلى المهالك، معينة للأعداء، طامحة إلى كل قبيح، متبعة لكل سوء، فهي تجري بطبعها في ميدان المخالفة.

فالنعمة التي لا خطر لها: الخروج منها، والتخلّص من رقّها، فإنها أعظم حجاب بين العبد وبين الله تعالى، وأعرف الناس بها أشدهم إزراء عليها، ومقتًا لها»[3]، فنسأل الله أن يعيذنا من شرور أنفسنا، وسيِّئات أعمالنا، إنه جواد كريم.

---

(١) سورة الحشر، الآية: ١٨.

(٢) انظر «إغاثة اللهفان» لابن القيم (١/ ٩٧- ١٠٠).

(٣) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٠٣).

أما القسم الثاني

فهو الأسباب الخارجية أو المؤثرات الخارجية التي تؤثر في الإيمان بالنقص، وهي ما كان سببها عائداً إلى تأثير غيره عليه.

وهذه تتلخّص في ثلاثة عوامل:

أوّلاً ـ الشيطان

فإنه يعدُّ سببًا قويًّا من الأسباب الخارجية التي تؤثر في الإيمان بالنقص، فالشيطان عدو لدود للمؤمنين، يتربص بهم الدوائر، لا همّ له ولا غاية إلا زعزعة الإيمان في قلوب المؤمنين وإضعافه وإفساده، فممن استسلم لوساوس الشيطان، وانقاد لخطراته، ولم يلجأ إلى الله منه ضعف إيمانه ونقص بل ربما ذهب كلية، بحسب استجابة المسلم لتلك الوساوس والخطرات.

ولهذا فإنَّ الله تعالى حذرنا منه أشد التحذير وبين أخطاره، وعواقب اتباعه الوخيمة، وأنه عدو للمؤمنين، وأمرهم أن يتخذوه عدوا فيسلمون منه ومن وساوسه.

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ...﴾(١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾(٤).

---

(١) سورة النور، الآية: ٢١.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٦.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٥.

(٤) سورة المجادلة، الآية: ١٩.

قال ابن الجوزي: «فالواجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدوّ الذي قد أبان عداوته من زمن آدم عليه الصلاة والسلام، وقد بذل عمره ونفسه في فساد أحوال ابن آدم، وقد أمر الله بالحذر منه... فذكر جملة من هذه النصوص ثم قال: وفي القرآن من هذا كثير»[1].

وقال أبو محمد المقدسي في مقدمة كتابه «ذم الوسواس»: «أما بعد: فإنَّ الله سبحانه جعل الشيطان عدوًّا للإنسان، يقعد له الصراط المستقيم، ويأتيه من كل جهة وسبيل، كما أخبر الله تعالى عنه أنه قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾[2]، وحذرنا الله عزَّ وجلّ من متابعته وأمرنا بمعاداته ومخالفته فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[3]، وقال: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾[4]، وأخبر بما صنع بأبوينا تحذيرًا لنا من طاعته، وقطعًا للعذر في متابعته، وأمرنا الله سبحانه وتعالى باتباع الصراط المستقيم...»[5].

فالشيطان عدوٌّ للإنسان همُّه إفساد العقائد وتخريب الإيمان، فمن لم يحصِّن نفسه منه بذكر الله واللَّجأ إليه والاستعاذة به صار مرتعًا للشيطان يسوِّل له فعل المعاصي ويرغِّبه في ارتكاب المناهي ويؤزّه لارتكاب الفواحش أزا، فيا ضيعة دينه ويا فساد إيمانه إن استسلم له.

قال ابن القيِّم رحمه الله: «وإياك أن تمكِّن الشيطان من بيت أفكارك وإرادتك فإنه يفسدها عليك فسادًا يصعب تداركه، ويلقي إليك أنواع الوساوس والأفكار المضرة، ويحول بينك وبين الفكر فيما ينفعك، وأنت الذي أعنته على نفسك بتمكينه من قلبك

---

(١) «تلبيس إبليس» (ص/ ٢٣).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٦ ـ ١٧.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٦.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.

(٥) «ذم الوسواس» (ص/ ٤٦)، وانظر أيضاً مقدمة ابن القيم لكتابه «إغاثة اللهفان» (١/ ١٠).

وخواطرك فملكها عليك»[1].

وضرب رحمه الله مثلًا بديعًا لذلك ينطبق عليه تمام الانطباق فقال في موضع آخر من كتبه: «وإذا أردت لذلك مثالا مطابقًا فمثله مثل كلب جائع شديد الجوع، بينك وبينه لحم أو خبز، وهو يتأملك ويراك لا تقاومه وهو أقرب منك، فأنت تزجره وتصيح عليه، وهو يأبى إلا التحوم عليك، والغارة على ما بين يديك»[2].

ومراده رحمه الله بهذا المثل أن يوضح مدى خطر الشيطان على الإنسان إذا لم يستعذ بالله منه ولم يلجأ إلى الله من شرِّه بالدعوات النافعة والأذكار المباركة.

فمن عشا عن ذلك وأعرض لازمه الشيطان تلك الملازمة يسول له ويملي حتى يذهب بإيمانه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَـٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾[3].

ثانيًا ـ الدُّنيا وفتنها

فهذا ثاني العوامل الخارجية التي تؤثِّر في إيمان الإنسان بالنقص.

فإنَّ من أسباب نقص الإيمان وضعفه الاشتغال بعرض الحياة الدنيا الزائل، وشغل الأوقات فيها والانهماك في طلبها، والجري خلف ملذاتها وفتنها ومغرياتها، فمتى عظمت رغبة العبد فيها وتعلق قلبه بها ضعفت الطاعة عنده ونقص الإيمان بحسب ذلك.

قال ابن القيِّم رحمه الله: «وعلى قدر رغبة العبد في الدنيا ورضاه بها يكون تثاقله عن طاعة الله وطلب الآخرة»[4].

ولهذا فإنَّ الله الحكيم الخبير ذم في كتابه الدنيا وبين خستها وحقارتها في غير ما آية من

---

(١) «الفوائد» (ص/ ٣٠٩).

(٢) «التبيان في أقسام القرآن» (ص/ ٤١٩).

(٣) سورة الزخرف، الآيات: ٣٦، ٣٧، ٣٨.

(٤) «الفوائد» (ص/ ١٨٠).

القرآن الكريم.

قال سبحانه: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[4].

وفي هذه الآيات أعظم وعيد لمن رضي بالحياة الدنيا واطمأن بها وغفل عن آيات الله ولم يرج لقاءه.

وقال تعالى ذامًّا من رضي بالدنيا من المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[5].

وقال ﷺ: «فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم». متفق عليه[6]، وفي لفظ لهما: «تلهيكم كما ألهتهم»[7].

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٠.

(٢) سورة الكهف، الآيتان: ٤٥-٤٦.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٢٦.

(٤) سورة يونس، الآية: ٧-٨.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٣٨.

(٦) البخاري (٦/ ٢٥٨، ٧/ ٣٢٠ ـ فتح)، ومسلم (٤/ ٢٢٧٤) من حديث عمرو بن عوف رضي الله عنه.

(٧) البخاري (١١/ ٢٤٣ ـ فتح)، ومسلم (٤/ ٢٢٧٤).

وغيرها من النصوص وهي كثيرة، فلا بدَّ لمن أراد لإيمانه النموَّ والقوَّة وأحبَّ له السلامة من الضعف والنقص أن يجاهد نفسه في البعد عن فتن الدنيا ومغرياتها وملهياتها وما أكثرها[1].

ولا يتمّ له ذلك ولا يتحقَّق إلَّا بعد النظر في أمرين:

الأوَّل: النظر في الدنيا وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخستها وألم المزاحمة عليها والحرص عليها، وما في ذلك من الغصص والنغص والأنكاد.

وآخر ذلك الزوال والانقطاع مع ما يعقب من الحسرة والأسف، فطالبها لا ينفكُّ من همٍّ قبل حصولها، وهمٍّ في حال الظفر بها، وغمٍّ وحزن بعد فواتها.

والثاني: النظر في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولا بد، ودوامها وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات، والتفاوت الذي بينه وبين ما ها هنا، فهي كما قال سبحانه: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[2]، فهي خيرات كاملة دائمة، وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة.

فإذا تأمَّل في هذين الأمرين وأحسن النظر فيهما هداه ذلك لإيثار الآخرة الباقية على الدنيا الفانية، وأكبر عون له في تحقيق ذلك النظر في حال الرسول ﷺ وسيرته هو وأصحابه من نبذهم لها وراء ظهورهم، وصرفهم عنها قلوبهم، واطِّراحهم لها، فهم لم يألفوها، وهجروها ولم يميلوا إليها، وعدوها سجنًا لا جنة، فزهدوا فيها حقيقة الزهد، ولو أرادوها لنالوا منها كلّ محبوب، ولو صلوا منها إلى كلِّ مرغوب، فقد عرضت عليه مفاتيح كنوزها فردها، وفاضت على أصحابه فآثروا بها ولم يبيعوا حظهم من الآخرة بها، وعلموا أنها معبر وممر لا دار مقام ومستقر، وأنها دار عبور لا دار سرور، وأنها سحابة صيف تنقشع عن قليل، وخيال طيف ما استتم حتى آذن بالرحيل[3].

---

(١) وانظر ما كتبه ابن الجوزي في كتابه «صيد الخاطر» (ص/ ٢٥ وما بعدها) في بيان ما الذي يذم من الدنيا وما الذي لا يذم، فإن نعيم الدنيا بحد ذاته لا يذم مطلقاً، فإن الله قد تمدح به في القرآن الكريم في غير موضع، وإنما الذي يذم منها هو فعل الجهال والعصيان والاشتغال بها عن الآخرة واستعمال نعيمها في غير مرضاة الله تعالى.

(٢) سورة الأعلى، الآية: ١٧.

(٣) انظر «الفوائد» لابن القيم (ص/ ١٧٦-١٧٨).

كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾[1].

وقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾[2].

وقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾[3].

وغيرها من النصوص.

فالله المسؤول أن يغيث قلوبنا بالإيمان، وأن يعيذنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

ثالثًا ـ قرناء السُّوء

فهم أضر الناس على إيمان الشخص وسلوكه وأخلاقه، فمخالطتهم ومصاحبتهم سبب عظيم من أسباب نقص الإيمان وضعفه.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»[4].

قال ابن عبد البرّ: «وهذا معناه والله أعلم أنَّ المرء يعتاد ما يراه من أفعال من صحبه، والدين العادة، فلهذا أمر ألَّا يصحب إلَّا من يرى منه ما يحلّ ويجمل فإن الخير عادة.

وفي معنى هذا الحديث قول عدي بن زيد:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن مقتدي

وقول أبي العتاهية:

من ذا الذي يخفى عليك ... إذا نظرت إلى خدينه

وهذا كثير جدًّا، والمعنى في ذلك ألا يخالط الإنسان من يحمله على غير ما يحمد من

---

(١) سورة الشعراء، الآيات ٢٠٥- ٢٠٧.

(٢) سورة يونس، الآية: ٤٥.

(٣) سورة الروم، الآية: ٥٥.

(٤) أخرجه أبو داود (١٣/ ١٧٩ ـ عون)، والترمذي (٤/ ٥٨٩)، وأحمد (٢/ ٣٠٣)، وعبد بن حميد في «المنتخب من المسند» (ص/ ٤١٨)، والحاكم (٤/ ١٧١)، وهو حديث حسن كما في السلسلة الصحيحة للألباني (٢/ ٦٣٤).

الأفعال والمذاهب، وأما من يؤمن منه ذلك فلا حرج في صحبته»[(١)].

وقال أبو سليمان الخطَّابي: «قوله: «المرء على دين خليله» معناه: لا تخالل إلّا من رضيت دينه وأمانته، فإنك إذا خاللته قادك إلى دينه ومذهبه، ولا تغرِّر بدينك ولا تخاطر بنفسك فتخالل من ليس مرضياً في دينه ومذهبه.

قال سفيان بن عيينة: وقد روى في هذا الحديث انظروا إلى فرعون معه هامان، انظروا إلى الحجاج معه يزيد بن أبي مسلم شر منه، انظروا إلى سليمان بن عبد الملك صحبه رجاء ابن حيوة فقومه وسدده.

ويقال: إن الخلة مأخوذة من تخلل المودة القلب وتمكنها منه: وهي أعلى درج الإخاء، وذلك أن الناس في الأصل أجانب، فإذا تعارفوا ائتلفوا فهم أوداء، وإذا تشاكلوا فهم أحبَّاء، فإذا تأكدت المحبَّة صارت خلّة»[(٢)].

وقد قيل: «الناس كأسراب القطا» لما جبلوا عليه من تشبه بعضهم ببعض ومحاكات بعضهم لأفعال بعض. ولهذا كان المبتدئ بالخير وبالشر له مثل من تبعه من الأجر والوزر[(٣)].

قال بعض الحكماء: «عمادة المودة المشاكلة، وكلُّ ود عن غير تشاكل فهو سريع التصرم»[(٤)].

وإنما جاء النهي عن مخالطة قرناء السُّوء والتحذير من مجالستهم، لأنَّ طباع الإنسان مجبولة على الاقتداء والتشبه بمن يقارن، فمجالسة طلاب العلم تحرك في النفس الحرص على طلب العلم، ومجالسة الزهاد تزهد في الدنيا، ومجالسة المبتدعة وأهل الأهواء تردي في مهاوي البدع، ومجالسة الحريص على الدنيا تحرك في النفس الحرص على الدنيا، وهكذا.

فلهذا لزم المرء أن يختار من القرناء والخلطاء من يكون له في خلطتهم خير ونفع، وأن

---

(١) «بهجة المجالس» (٢/ ٧٥١).

(٢) «العزلة» (ص/ ٥٦).

(٣) انظر «الاستقامة» لابن تيمية (٢/ ٢٥٥).

(٤) «العزلة» للخطابي (ص/ ٦٢).

يحذر أشد الحذر من قرناء السوء.

ومن تأمل حال السلف وتدبر سيرهم علم ذلك، ورأى شدة حذرهم وتحذيرهم من رفقاء السوء من فساق ومبتدعة وغيرهم[1].

قال أبو الدرداء: «من فقه الرجل مدخله وممشاه وألفه»، ثم قال أبو قلابة: بعد أن روى هذا الأثر عن أبي الدرداء: ألا ترى إلى قول الشاعر:

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه فإن القرين بالمقارن يقتدي»[2]

وقال الأصمعي عن هذا البيت: «لم أر بيتا أشبه بالسنَّة منه»[3].

وجاء عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «اعتبروا الناس بأخدانهم، فإن المرء لا يخادن إلَّا من يعجبه».

وعن الأعمش قال: «كانوا لا يسألون عن الرجل بعد ثلاث: ممشاه ومدخله وألفه من الناس».

وقال سفيان: «ليس شيء أبلغ في فساد رجل وصلاحه من صاحب».

وقال قتادة: «إنا والله ما رأينا الرجل يصاحب من الناس إلَّا مثله وشكله، فصاحبوا الصالحين من عباد الله لعلكم أن تكونوا معهم أو مثلهم».

وقال الفضيل: «ليس للمؤمن أن يقعد مع كلّ من شاء...»[4].

والآثار في هذا كثيرة جدًّا يطول ذكرها، وإنما انتقيت منها ما فيه البلغة والكفاية، فمن تأمل هذه الآثار المذكورة وغيرها عرف ما في مقارنة أهل السوء والفسق والفجور من الخطر على الدين والخلق، فأنت قد ترى الرجل مستقيما عفيفًا صالحًا، فإذا قارن وخالط

---

(١) انظر في ذلك على سبيل المثال «العزلة» للخطابي (ص/ ٥٦ وما بعدها)، و«الإبانة» لابن بطة (٢/ ٤٣١ وما بعدها)، وغيرهما.

(٢) رواه ابن الأعرابي في «معجمه» (برقم: ١٢٧٧) ومن طريقه الخطابي في «العزلة» (ص/ ٥٩)، ورواه ابن بطة في «الإبانة» (٢/ ٤٣٧، ٤٣٩) بلفظ مقارب.

(٣) «الإبانة» لابن بطة (٢/ ٤٤٠).

(٤) روى هذه الآثار ابن بطة في «الإبانة» (٢/ ٤٣٩، ٤٥٢، ٤٧٦، ٤٨٠، ٤٨١).

أهل السوء والفسق وصحبهم أصبح فاسقًا فاجرًا مثلهم، وهذه سنّة الله في خلقه، وكما قيل: الصاحب ساحب.

وعلى هذا فخلطة الفسَّاق وأهل السّوء من أعظم أسباب نقص الإيمان وضعفه بل وربما اضمحلاله وتلاشيه، وذلك بحسب حال هؤلاء في السّوء وبحسب خلطته لهم.

ومما استجدَّ في زماننا ـ وهو داخل في حكم الصاحب بل أمره أشد ـ الجلوس إلى القنوات الفضائية والمواقع المنحرفة في الشبكة العنكبوتية، حيث تمكن أعداء الدين من خلال هذا المجال الدخول إلى المساكن والبيوت يحملون فتنهم وسمومهم وينشرون رذائلهم وحقارتهم وفجورهم، وكانوا سابقاً يعجزون عن الوصول إلى أفكار الشباب وعقول الناشئة، وإنَّ من المؤسف حقًّا أن أصبح في أبناء المسلمين وبناتهم من يجلس أمام هذه الشاشات المدمِّرة الساعات الطوال يُصغي إليهم بسمعه وينظر إليهم بعينه، ويُقبل على ما يعرضونه بقلبه، ومع مرِّ الأيام تتسلَّل الأفكار الخبيثة، وتتعمَّق المبادئ الهدَّامة، وتُغزى العقول والأفكار ويتزايد الشرُّ والفساد، والواجب على المسلم أن يصونَ نفسه وبيتَه عن معاول الهدم وطرائق الشرِّ، فالأمر في غاية الخطورة، والحافظ هو الله، ومن يعتصم بالله فقد هُدي إلى صراط مستقيم، اللّهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كلِّ خير، والموت راحة لنا من كلِّ شر.

وختامًا

فهذه جملة مباركة من أسباب زيادة الإيمان ونقصانه جمعتها لك ـ أخي الكريم ـ من أماكن متفرقة، ومصادر مختلفة، تبصيرا وتحذيرا.

والله الكريم أسأل لي ولك التوفيق والسداد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفهرس

* * *